بلاغة السامع عند "السكاكي"

إعداد:

د. شيماء عبد الرحيم توفيق محمد

أستاذ البلاغة والنقد المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

بنات القاهرة

بلاغة السامع عند "السكاكي"

شيماء عبد الرحيم توفيق محمد

قسم البلاغة والنقد، كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات بالقاهرة، مصر.

البريد الإلكتروني:shimobosho27@yahoo.com

الملخص :

لا يتلفظ بالكلام إلا لفائدة يقصد المتكلم إيصالها إلى السامع في أحسن صورة من اللفظ سواء أكان المتكلم يفصح عما في ذاته منفعلا به أو مفكرا فيه، والسامع يتلقى هذا القول فإذا كانت نفسه طيبة فَهِم وفَقِه وعَقِل وتدبر فاعتبر، وإذا كانت بخلاف ذلك كان من أصحاب السعير؛ ولهذا أحضر "السكاكي" السامع معه منذ الوهلة الأولى في المقدمة وهو يعرِّف علم المعاني، فذكر أثر الكلام عليه عند سماع التراكيب، وذكر درجة الإفادة التي يحصِّلها من سماع كلام جديد أو مُعاد، وعده طرفا منتجا للدلالة فيعتبر حاله من خلو الذهن، أو تحيره وشكه، أو استفهامه، أو إنكاره، أو قصد تجهيله، أو التعريض بغباوته، أو جعله حكما فيصلا، أو اختبار ذهنه، وتيقظ خاطره...إلى غير ذلك من الأغراض والأحوال التي أشرك فيها "السكاكي" السامع في خطابه وجعله عنصرا فاعلا في توجيه القول، واقتداح زناد عقل المنشيء له، فكان هذا دافعا إلى إلقاء الضوء على بلاغة السامع باعتبار غاية الفن القولي تهذيب المشاعر والرقي بالإنسان؛ فجاء البحث موسوما بـ" بلاغة السامع عند "السكاكي".

الكلمات المفتاحية: بلاغة السامع – السكاكي.

The eloquence of the listener when "Sakaki"

Shaima Abdul rahim Tawfiq Muhammad
Department of Rhetoric and Criticism, Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls, Cairo, Egypt.
Email:shimobosho27@yahoo.com

Abstract :
He does not utter words except for a benefit, the speaker intends for the listener, whether he is one of the companions of the Blaze. ; That is why he brought "al-Sakaki" the listener with him from the first moment in the introduction, and he defines the science of meanings.
So he mentioned the effect of speech on him when hearing the structures, and mentioned the degree of benefit he gets from hearing new or repeated words, and he counted him as a party that produces evidence, so he considers his state as empty of mind, or bewilderment and doubt, or questioning, or denying it, or intending to ignore it, or exposing its stupidity, or making it A decisive judgment, or testing his mind, awakening his mind... To other purposes and conditions in which al-Sakaki involved the listener in his speech and made him an active element in directing the saying, and triggering the trigger of the mind of its originator. The goal of saying art is to refine feelings and elevate people. The research came under the heading "The eloquence of the listener at Sakaki.

Keywords: the eloquence of the listener - al-Sakaki.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

عني الدرس البلاغي بدراسة بلاغة الكلام والمتكلم، ولم يُعن بالمتلقي الذي هو شريك للقائل، والذي قد يُؤتَى من قبل المتكلِّم، وقد أجاب "ابن المقفع" ت١٤٢هـ عندما سئل عن البلاغة أنها تكون في معان كثيرة منها: ما يكون في الاستماع(١)، وأوضح "الجاحظ" ت ٢٥٥هـ أن الغاية التي إليها يجري القائل والسامع إنما هي الفهم والإفهام(٢)، وهو ما نظمه "ابن مالك" ت٦٧٢هـ في قوله: " كلامنا لفظ مفيد"، وهو ما صرح به "السكاكي" ت ٦٢٦هـ في تعريفه لعلم المعاني بأنه "تتبع خواص التراكيب في الإفادة"(٣)، فالذي يتغياه المتكلِّم –القاصد لما تكلم به– انتفاع المستمع، وقد نزه الله تعالى أسماع أهل الجنة عن استماع الخنا، وسقط القول، وما لا فائدة فيه، فقال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا﴾(الواقعة:٢٥)، ومدح المؤمنين بإعراض أسماعهم وتنزهها عن سماع الباطل، وفضول الكلام، وما لا طائل تحته فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾(المؤمنون:٣)، فالكلام لا يتلفظ به إلا لفائدة يقصد المتكلم إيصالها إلى السامع في أحسن صورة من اللفظ سواء أكان المتكلم يفصح عما في ذاته منفعلا به أو مفكرا فيه، فالمتكلم وظيفته إنشاء القول سواء أكان هذا القول ذاتيا ينفعل به، أو

(١) ينظر البيان والتبيين. الجاحظ. تح: عبد السلام هارون، ٩٤/١، ط١، مكتبة ابن سينا ٢٠١٠م.

(٢) السابق ١/ ٧٠

(٣) مفتاح العلوم. أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد السكاكي. تح: حمدي محمدي قابيل، راجعه: مجدي فتحي السيد، ص١٥١، المكتبة التوفيقية.د.ت.

موضوعيا يتصل بالمخاطب، أو البيئة أو حدث معين؛ ولذلك هو لا يتكلم من فراغ، أو يلغو لغوا يقطع به وقته، بل يقول خيرا أو يصمت، والسامع يتلقى هذا القول فإذا كانت نفسه طيبة فَهِم وفَقِه وعَقِل وتدبر فاعتبر، وإذا كانت بخلاف ذلك كانت من أصحاب السعير ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾(الملك: ١٠)؛ ولهذا أحضر "السكاكي" السامع معه منذ الوهلة الأولى في المقدمة وهو يعرف علم المعاني، فقال:"تتبع"، فالبلاغي متتبع لخواص التراكيب استكشافا وذوقا باعتبار كونه سامعا(قارئا)، فذكر أثر الكلام عليه عند سماع التراكيب، وذكر درجة الإفادة التي يحصلها من سماع كلام جديد أو مُعاد، وعده طرفا منتجا للدلالة فيعتبر حاله من خلو الذهن، أو تحيره وشكه، أو استفهامه، أو إنكاره، أو قصد تجهيله، أو التعريض بغباوته، أو جعله حكما فيصلا، أو اختبار ذهنه، وتيقظ خاطره...إلى غير ذلك من الأغراض والأحوال التي أشرك فيها "السكاكي" السامع في خطابه وجعله عنصرا فاعلا في توجيه القول، واقتداح زناد عقل المنشيء له، فكان هذا دافعا إلى إلقاء الضوء على بلاغة السامع باعتبار غاية الفن القولي تهذيب المشاعر والرقي بالإنسان؛ فجاء البحث موسوما بـ" بلاغة السامع عند "السكاكي".

خطة البحث: اقتضت خطة البحث أن يقسم إلى: مقدمة، وتمهيد، وفصلين: الفصل الأول: يتكون من ثمانية مباحث: المبحث الأول: معطيات كيفيات المخاطبة في الإسناد الخبري، الثاني: معطيات كيفيات المخاطبة في اعتبارات المسند إليه، الثالث: معطيات كيفيات المخاطبة في اعتبارات المسند، الرابع: معطيات كيفيات المخاطبة في اعتبارات الفعل وما يتعلق به، الخامس: معطيات كيفيات المخاطبة في القطع، السادس: معطيات كيفيات المخاطبة في الإيجاز والإطناب، السابع: معطيات كيفيات

المخاطبة في بيان القصر والأمر، الثامن: خروج الطلب لا على مقتضى الظاهر، والفصل الثاني: علم البيان، ويتكون من مبحثين: الأول: التشبيه، والثاني الاستعارة، ثم خاتمة البحث، وثبت للمصادر والمراجع، وفهرس للموضوعات.

هدف البحث: الكشف عن طرف من أطراف عملية التواصل قلت عناية السلف به، أورده السكاكي في كل مبحث من مباحثه، وأوجب حياطة فهمه من معوقات التلقي، وتنبيه عقله، وتربية ذائقته، ووقاية قدره، وهو السامع.

الدراسات السابقة: التخاطب في بلاغة السكاكي.د. الربيع بو جلال، ود. باديس لهويمل، مجلد ٠٧-١-ع ١٣ نوفمبر ٢٠١٩م، حوليات الآداب واللغات. جامعة محمد بو ضياف. المسيلة. الجزائر.

منهج البحث: اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي البياني الذي يحاول وصف مقامات ورود السامع في بيان السكاكي وفهمها وتفسيرها، واستعانت بالمناهج الأخرى كالمنهج النفسي والتاريخي، وقامت باستقراء المواضع التي ذكر فيها السامع في القسم الثالث من كتاب المفتاح وحصرها؛ للوقوف على الموائز الأسلوبية التي اقتضت أن ينص السكاكي وهو يقعد لعلم البلاغة على السامع، ويعتبر وجوده عنصرا فاعلا في صوغ بلاغة القول، كما اقتضت أن يكون نمط الدراسة نمطا تقليديا يتتبع نمط السكاكي في أبوابه ومباحثه ليحصي مقامات ورود "السامع" في بيان السكاكي ويرصدها، ويكشف عن سر تواجدها في موضعها من التبويب.

أسئلة البحث: يجيب البحث عن سؤالات يثيرها النظر في نص السكاكي على السامع في مواضع مختلفة في القسم الثالث من كتابه، منها:

س- هل للسامع بلاغة؟ ما هي بلاغة السامع؟

س- فيم تتمثل بلاغة السامع؟ وما مظاهرها؟

س- لماذا نص "السكاكي" على السامع في مباحثه البلاغية؟

س- من هو السامع المقصود توجيه الكلام إليه؟

س- أيقتصر السماع على الأصوات المنطوقة أم يمتد ليشمل السجلات المكتوبة المنظورة؟

س- هل سبق "السكاكي" أحدا بالحديث عن السامع؟

س- أيُعرِّض السكاكي بسامع معين يوجه إليه كلامه ؟

س- أتقتضي المطابقة للحال حال السامع أم المتكلم؟

س- متى يعبر السكاكي بالمخاطب؟ ومتي يعبر بالسامع؟

كتبته:

شيماء توفيق

تمهيد

هل يسيل مداد العلماء على أوراقهم إلا نفعا للبشرية وتربية للفائدة بحسب اختلاف حظ السامع من العلوم كمالا ونقصا، ودرجة ذكائه قوة وضعفا، وموازنة بين قدره وأقدار الحالات والمقامات.

السامع أحد طرفي البلاغ، والمتكلمُ – الذي يوصل حاجته– طرفُه الآخر، والناقد طرف خارجي – سامع أيضا– يسعى إلى تقريب النص إلى السامع، " قيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهام السامع، ولذلك سميت بلاغة"(١)، فحاجته: مراده، وحسن الإفهام: عملية مشتركة بين طرفين: المتكلم والسامع، يتدخل في إنجاحها عوامل شتى، منها: خلو المتكلم من عيوب اللسان، والعيوب المخلة بالفصاحة، ووضوح المعنى في نفسه، واختماره في عقله، وخلو السامع عن أمراض السماع، وحضور ذهنه وعقله؛ لتتحقق الغاية المنشودة وهي توصيل المعنى إلى قلب السامع في أحسن صورة فيفهمه، وهذا إذا كان المتكلم محاورا للسامع، أو خطيبا، أما الأدباء فلا يكون قصدهم الأسمى توصيل رسالة معينة إلى القارئ بل إنهم يعبرون عما يجول بأنفسهم في صورة فنية معجبة، وهي تختلف عن لغة العلم المحكمة التي يراد منها إيصال حقائق معينة، في لغة أدبية واضحة.

المرء إزاء عملية التواصل بين حالين إما متكلما أو سامعا، والمتكلم لا ينشيء أدبه في فراغ ولكنه يريد إبلاغ رسالة معينة يعيها السامع جيدا، ويتحتم عليه حسن إفادته وإفهامه؛ ولذلك لابد أن يتوقف ويسائل نفسه: هل

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تح: محمد محي الدين عبد الحميد،١/٢٤٤، دار الجيل.د.ت.

تحقق فهم مقصدي، وهل أنا مفهوم من سامعي؟ وهنا يمكن أن تحل الإشكالية بسؤال المتكلم ومحاورته، أما السماع المنظور– وهو ما لا تكون الأصوات المنطوقة مسموعة بل حروفا مسطورة منظورة– فكيف يمكن حلّ إشكاله؟ إن الكلام المكتوب حافز للذهن ومثير له أن يُصحِح ويُنقِّح خاصة أن التراث البشري كله انتقل إلينا عن طريق الرموز اللغوية، وأصبح الإنسان يفكر عن طريق الكتابة، فإذا أراد أن ينقل فكرة أو حال شعوري فهو أمام أمرين: إما أن يتكلم أو أن يكتب على حسب المقام والأحوال المحيطَيْن به، والوظيفة الاجتماعية للكلام نقل التجارب والخبرات والتعارف، قال تعالى: " يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ" (الحجرات:١٣)، والكلام المنطوق تنتقل فيه المعاني المختلجة في صدر قائلها إلى اللسان، أما السامع فالأمر بالعكس تستقبل حاسة السمع الكلام، فيحوله المخ إلى إشارات ورموز يفسرها السامع، ويفهم فحواها فيتحقق التواصل اللغوي، وهذه العملية التواصلية بين المتكلم والسامع يعوق استرسالها وجود آفات اللسان وأمراض السمع؛ ولذا ذكر "الجاحظ" الحروف التي تدخلها اللثغة، والحُبسة، والعُكلة[١]، والنبو عن التنافر في الحروف والكلمات، كما اشترط وحدة اللسان، فذكر اللُكنة؛ فلابد من معرفة السامع بلغة المتكلم كي يتحقق التواصل، وتتحقق الغاية المنشودة من البيان، وهي الإفادة والإفهام.

إن عملية دراسة السماع وملابستها أمر جد عسير يكتنفها أمور شتى يصعب على البحث الإحاطة بها في مقام واحد؛ لتضمنها الحديث عن السلامة العضوية لجهازي النطق والسمع، والسلامة النفسية، والفكرية،

(١) البيان والتبيين ٤٣/١ وما بعدها.

ومقتضيات الأحوال، والمقام، والحال، وأنواع القول المكتوب والشفاهي من إنتاجه حتى إدراكه، وأنواع الأجناس الأدبية، والنقد، والناقد، ولكن المُعنَى به هنا هو النتاج البليغ – شعرا كان أو نثرا أو بيان علم_ لمتكلم بليغ.

لما كان "الجاحظ" من أوائل الكتاب النقاد الذين جمعوا تراثا أدبيا بلاغيا نقديا ضخما، وأفاد منه جميع من جاء بعده، ونقل نصوصا مهمة عن السماع تعد اللبنات الأولى لبلاغة السماع- وإن لم ترد مبوبة تحت باب بعينه- آثر البحث أن يرسل الضوء على هذه النقدات في هذه المرحلة الباكرة.

السامع عند "الجاحظ" ت٢٥٥هـ :

جعل "الجاحظ" "التلقي" والأفضل القول "التواصل" بين المتكلم والسامع عملية تكاملية، فكلا الطرفين مسؤول- السامع شريك للقائل[١]- فالمُبين مسؤول عن توصيل رسالة واضحة إلى المتلقي، وتمكينه من إدراك الرسالة بحُسن تصويره لها، وبيانه عنها، سواء أكان ذلك باللفظ أو غيره من أنواع الدلالات، والمتلقي مسؤول عن التهيؤ الذهني والاستعداد للاستنباط، وفهم مغزى الرسالة، وهذه العملية المشتركة بين المبين والسامع هي ما استحسنه "الجاحظ" حيث نقل قول الإمام "محمد بن إبراهيم"، وعقب عليه برأيه: " يكفي من حظ البلاغة أن لا يُؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع. قال أبو عثمان: أما أنا فأستحسن هذا القول جدا "[٢] وهذا العكس والتبديل جعل عملية التواصل عملية نفعية ذات مغزى، فالمتكلم يُبين لحاجة السامع إلى الإفادة وإلا كان البيان لغوا، وينبغي

(١) البيان والتبيين ١٩٢/٢

(٢) السابق ٧٧/١

أن يروض المتكلم الكلام ويسوسه بحسب المقام معتبرا في ذلك حق السامع العارف بحق الكلام، وأن يكون مبرءا من الهجنة، والتكلف، واللُكنة، واللُثغة، والعُقلة، والتقعر، والتشادق، تامَ الآلة، برئ مما يعتري اللسان من ضروب الآفات، ويكون بيانه خاليا من العيوب المخلة بالفصاحة، وحروف كلامه وأجزاؤه متفقة، سهلة، مواتية، جيدة الصنعة، كاشفة للمعاني، واضحة الدلالالة، ليست مُعمَّاة غَلِقة، وتكون المعاني طبقا للألفاظ، لا زائدة عليها، ولا ناقصة عنها، ويكون السامع حسن البديهة، رقيق الطبع، ثاقب الفهم، واسع الصدر، راجح الحُلْم، سليم الصدر، ليس شانئا جاهلا مُبغضًا " ولا يقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب"[(١)]؛ ليؤدي الكلام غايته من الفهم والإفهام، وأن يكون عربي المنشأ فصيحا؛ ليفرق بين الغث والسمين مع مراعاة حظه من اللسن والفصاحة.

أثر السماع:

إن الغاية التي تتحقق من السماع هي التأثير، والاستثارة، والاستجابة، وهذا لا يتأتى إذا كان المتكلم يُبين عن غرض واحد، بل لابد أن تتنوع الأغراض، وإذا لم يكن شعر الشاعر نمطًا واحدًا لم يمله السامع [(٢)]، ويُحسن التخلص من فن إلى فن إثارة لانتباه السامع وتنبيهه؛ ولهذا كان الشعراء الجاهليين على وعي بهذه التنقلات مما يضمن لهم الانجذاب

(١) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر. أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تح: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ص ٥٧، المكتبة العصرية ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م .

(٢) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبي علي الحسن بن رشيق، تح: محمد محيي الدين، ١٠٥/٢، دار الجيل.د.ت.

والميل، والإجازة والنيل إذا كان الشاعر مادحا "ومتى لم يخرج السامع من شيء إلى شيء لم يكن لذلك عنده موقع"(١) .

حق السامع على المتكلم:

الإفهام، والتفهم لما لا يفهمه؛ فلابد أن يعرف المتكلم مقاصد القول، ويعرف أغراض المخاطب؛ ليدخل إليه من بابه، وأن لا يطيل له الكلام؛ ليضمن جذب انتباهه، ونشاطه له "على أنَّ الكلام لا ينبغي أن يكثر وإن كان حسناً كلُّه، إذا كان السامع لا ينْشَط له، وجاز قدر احتماله؛ لأنَّ غاية المتكلِّم انتفاع المستمع"(٢) فالنفس البشرية ملولة كليلة؛ ولذلك قال علي بن أبي طالبٍ، رضوان الله عليه: " إن هذه القلوب تمُّل كما تملُّ الأبدان، فابتغوا لها طُرف الحكمة"(٣)، فالطرف: المستحدَث، والجديد الذي ليس عند الشخص مثله، فيعجِبه(٤)، وهنا يشير سيدنا علي – رضي الله عنه– إلى الإيجاز، وحذف فضول الكلام، فلا ينبغي أن يكرَر الكلام؛ ليضمن حضور بال السامع وإقباله؛ ليفيد من السماع.

حق السامع على نفسه:

أن يترفع عن سماع اللغو والخنا والباطل؛ فالجاهل يسعد بتردد جهله على الألسنة وانتشاره، ويشقى السامع بالذنب، وتمكن الجهل في نفسه؛ لأنه غزاه من مسمعه.

---

(١) البيان والتبيين ١٥٢/١

(٢) رسائل الجاحظ. عمرو بن بحر بن محبوب الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، ٢٨٩/١، مكتبة الخانجي ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.

(٣) السابق١/ ٢٨٩

(٤) لسان العرب. مادة (ط ر ف).

حق المتكلم على السامع:

حسن الاستماع والإصغاء، وفراغ البال، والتثبت، والتعرف.

متى يكون المتكلم أشد طلبا للسامع من حاجة السامع إليه؟

إذا كانت بغيته الشهرة، وطلبته أن يطير ذكره في الآفاق، فلم يتكلم ليُسمع ويُفهم، ولكنه تكلم ليُنقل عنه، وهذا يقتضي اعتناء بالصنعة، وكدّا للخاطر، واجتلاب المعاني من مكامنها، وغصب الألفاظ مما يصرف نفسه عن الطاعة، ويكون داعيا إلى التنافس، والتباغض، والعُجْب، وحب المباهاة، فتضيع غاية البيان .

الفصل الأول

علم المعاني

ابتدأ "السكاكي" حديثه في القسم الثالث من كتابه عن علمي المعاني والبيان دون تقدمة أو تمهيد، فشرع في تعريف علم المعاني؛ لأنه بنى الكتاب على مفاتيح للعلوم، وجعل المعاني والبيان مرقاة ثالثة في درج العربية، لا تتم إجادتهما دون إتقان علمي الصرف والنحو، وكان تفكيره ممنهجا من أول سطر في كتابه بأنه سيذكر حدي العلمين، ويضبط معاقد الكلام فيهما، فيتحدث عن المواضع التي تتجلى البلاغة فيها مما ينبغي الوقوف عليه، وتخصيصه بالذكر، فقد انتهج نهجا جديدا لم يسبقه أحد إليه ترتيبا وتنسيقا وتجميعا لأشتات مفرقة في كتب كثيرة.

معلم دال على مفهوم عام للسامع عند "السكاكي":

عقد "السكاكي" اتفاقا مع القارئ منذ أن بدأ الحديث عن علم المعاني، فالمتكلم الذي يُبيبن ليفيد بليغٌ ناقد مميّز لأجناس الكلام، عارف بطبقاته وصنعته، والسامع للكلام ذو فطرة سليمة، مميز لبلاغة الكلام وطبقاته أيضا، فالمتكلم والسامع عند "السكاكي" على درجة واحدة من البلاغة والفهم، وإن كان السامع ناقدا للكلام يتوجب أن يكون أكثر ثقافة من المتكلم؛ فهو سيتولى معالجة كلامه.

ف"السكاكي" يخاطب جمهورا بلاغيا يرتفع عن العامة التي قد تلقي كلامها لغوا، ولا قدرة لها على معرفة اللطائف التي يلوح بها المقام، وهو بهذا يسمو بعلمي المعاني والبيان ومتعاطيهما، فجعل متعاطيهما فاضلا معرفيا لا نسبا وحسبا، وجعل هذا العلم علم خاصة، لا يتناوله من لا تمييز له ولا فطنة، وكان هذا أساسا انطلق منه، فلم يعمد إلى ذكر جميع اللطائف والنكات في المعاقد التي ظبطها، بل حمّل السامع (القارئ) مسؤولية البحث، والمفاتشة،

والاستشفاف، والاستنباط، والقياس، وهو ما عوّل عليه عند ذكر (في تفصيل اعتبارات المسند إليه)، يقول: "... وجب عليك أيها الحريص على ازدياد فضلك، المنتصب لاقتداح زناد عقلك، المتفحص عن تفاصيل المزايا التي بها يقع التفاضل وينعقد بين البلغاء في شأنها التسابق والتناضل أن ترجع إلى فكرك الصائب وذهنك الثاقب وخاطرك اليقظان وانتباهك العجيب الشان، ناظرا بنور عقلك وعين بصيرتك.... فهو الرهان الذي يجرب به الجياد، والنضال الذي يعرف به الأيدي الشداد"(١)، فلا يتفحص عن تفاصيل مزايا إلا سامع بليغ ذواقة، وناقد متمرس بسبر الأساليب وكشف جودتها وزيفها وبهرجها، واستجمع "السكاكي" من السامع أربعة أمور: فكر، وذهن، وخاطر، وتنبّه، مزاوجا بين العقل والذوق، لافتا إلى الأثر النفسي الذي يجعل السامع يعطف على الكلام ويقبل؛ فلم ينص على نوع بعينه من أجناس الأدب، بل خصص الكلام بتراكيب البلغاء.

لماذا نتكلم؟

الأصل في الإخبار أن يستفيد السامع (المخاطب) حكما لا يعلمه؛ لتتحقق له فائدة يرتفع بها الكلام عن وصمه باللاغية كما جاء في مقدمة البحث، "ومرجع كون الخبر مفيدا للمخاطب على استفادة المخاطب منه ذلك الحكم ويسمى هذا فائدة الخبر"(٢)، والفائدة: استحداث مال وخير(٣)، وما

(١) مفتاح العلوم ص ١٦٣

(٢) مفتاح العلوم ص ١٥٦

(٢) معجم مقاييس اللغة. أبي الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، تح: عبد السلام محمد هارون، باب الفاء والياء وما يثلثهما، مادة .(ف ي د)،٤/٤٦٤، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

استفدت من علم أو مال[١]، فكلمة (استحداث) وجود بعد عدم، فما سيحصل من الكلام من إفادة الخير للسامع لم يكن موجودا من قبل؛ والخير عطاء معنوي(علم) أو مادي(مال)، وهذا هو المرجو من التلفظ بالقول، أن يكون له أثر، وأن يحقق فائدة لا يأثم بها قائلها أو سامعها، ويتحقق منها للسامع فائدة وعلم شرعي أو دنيوي– فالعبادات والمعاملات أخبار– أو لازم الفائدة، وهو ثابت وموجود حتى ولو كان مجهولا، وهو يشير إلى وجوب إعمال السامع عقله فيما يسمع، فيستفيد من الخطاب حكما، ويستفيد معنى معقولا من لفظه ليس موضوعا له، وإنما "هو دليل الخطاب الذي يجب اعتبار دلالته على ما دل عليه"[٢]، وهو وإن كان مجهولا غير مذكور(لازم الفائدة) فإنه مساو للمعلوم المذكور وهو(الفائدة)، وهو ما يتعين على السامع ويتوجب عليه أن يتذكره، وأن يكون منتبها له متيقظا.

(١) لسان العرب. مادة (ف ي د).

(٢) الفصول في الأصول. أبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، ٢٩١/١، ط٢، وزارة الأوقاف الكويتية١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

المبحث الأول

اعتبارات التخاطب : توجيه السامع خطاب المتكلم في الإسناد الخبري:

من مقاصد المتكلم مراعاة أحوال المخاطبين، فيصرِّف بيانه حسب أحوالهم من خلو الذهن عن الفائدة، أو التردد فيها، أو الإنكار لها، وهذا يدفع إلى القول مرة أخرى: أيقرض الشاعر شعره وهو يعي حال المخاطبين ويعتبرها أم يقرض؛ لأنه يلبي شعوره بالجمال وإحساسه بالمتعة؟ إن وجود الإنكار والترقي فيه، والخلو عنه، موافق لمواقف الجدل والحجاج والخصام، ويوافق الشعر إذا كان المخاطب معيّنًا، والشعر سهل طيّع يعلو أن يكون سجالا، كما أن الشواهد التي أوردها "السكاكي" على كلامه في هذا الموضع ليست شعرا؛ ولذلك عدَّ هذا القبيل من الكلام تصريحا، وإخراجا على مقتضى الظاهر، وجعل البلاغة في إخراج الكلام لا على مقتضى الظاهر آنق في الأسماع، وهز القرائح، ونشاط الأذهان؛ لتلقي المخاطب بغير ما ينتظره " تجهيله بوجوه مختلفة"[1] بتنزيله منزلة خالي الذهن وهو غير خال، أو في مقام السائل وهو غير سائل، أو تنزيل غير المنكر منزلة المنكر، أو تنزيل المنكر منزلة غير المنكر، تنبيها على غفلة السامع في الأول، وتردده في الثاني، وتوبيخا له وتهكما به واستهزاء في الثالث، وتجهيلا له في الرابع بتنزيله منزل خالي الذهن، وهذه الوجوه يعتبرها أرباب البلاغة في محاوراتهم لسببين: الأول: الأثر التي تحدثه في نفوس سامعيها من الارتياح، والخفة، والإعجاب، والنشاط، والثاني: حزونة هذه الوجوه، وتوعر مسالكها "..لا بد من ممارسات لها كثيرة، ومراجعات فيها طويلة مع فضل إلهي من سلامة فطرة، واستقامة طبيعة، وشدة ذكاء، وصفاء قريحة،

(١) مفتاح العلوم ص ١٦١

وعقل وافر"[١] وهذا يجمع أمرين: سليقة "ذوق مكتمل"[٢]، وملكة تنشأ عن تتبع تراكيب البلغاء، ويلزم عن ذلك أن يكون السامع على نفس القدر أو أكبر في التذوق والتتبع.

(١) السابق ص ١٦٣

(٢) مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث. د. إبراهيم الخولي، ص٥٦٩، ط١، دار البصائر ١٤٢٨هـ. ٢٠٠٧م.

المبحث الثاني

السامع في اعتبارات تفصيل المسند إليه:

١ ـ طي ذكر المسند إليه:

يتصرف الأديب في بيانه تصرفا يجعله مستجدا بعيدا عن التكرار والثقل والترهل؛ ليكون أوقع في النفس، وألطف على السمع، وأحظى بالقبول، فيطوي المسند إليه أو يذكره، ويعرفه أو ينكره، ويقدمه أو يأخره، ويخصصه أو يطلقه، ناظرا بعين الاعتبار إلى مقتضيات الأحوال التي تقتضي تلون ذكر المسند إليه بكيفيات مختلفة منطلقا من علم النحو إلى ما ورائه وهو علم معاني النحو، فالنحو يشكل الموقف، والبلاغة تبحث في المقتضي الباعث على هذا التشكل، وسببه، ومطابقة تركيبه لمقتضى الحال، فيُطوى ذكر المسند إليه وهو عمدة الكلام وعموده والمحكوم عليه إذا وجدت قرينة لفظية، أو حاليّة تُغنِي عن النُّطق به، فيُحْذَف لدلالتها عليه، والفعل كناية عن كل عمل متعدٍّ أَو غير متعدٍّ[١]، ولا بد له من فاعل يُسند إليه الحدث، ويُنْسَب إليه، وإلّا عدِمت فائدتُه[٢]، فلا فعل بدون مُحدِث له، وكذلك المبتدأ لا يجد المتكلم منه بُدا، وكما لا ينفك الفعل عن موجد له، كذلك لا ينفك المبتدأ عن الخبر، ولا يغني أحدهما عن الآخر، "فالمبتدأ معتمَدُ الفائدة، والخبرُ محلُّ الفائدة، فلا بدّ منهما"[٣]، وإذا طوي المسند إليه فيكون كالمذكور من جهة حصول الفائدة.

---

(١) لسان العرب مادة (ف ع ل).

(٢) شرح المفصل. الزمخشري، تقديم: د.إميل بديع يعقوب،١٩٩/١، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ. ٢٠٠١م.

(٣) شرح المفصل ١/ ٢٣٩

استهل "السكاكي" حديثه عن "طي ذكر المسند إليه بقوله:" إذا كان السامع مستحضرا له عارفا منك القصد إليه عند ذكر المسند"[١]، فالأساس الذي بني عليه "السكاكي" حصول الفائدة للسامع، وضمان استمرار فاعليته في تلقي الخطاب باعتباره عنصرا فاعلا فيه، فتَرْك المسند إليه؛ لمعرفته، وتعيينه عنده بالقرينة، وجعل مع المقتضي النحوي مقتضيا بلاغيا باعثا على الحذف، كضيق المقام وعدم اتّساعه للإطالة، ولم يقيد هذا الضيق، هل هو ضيق مقام المتكلم عن الحكي بسبب حزنه وتوجعه، أو ضيق وقته، أو خوف فوات فرصة، أولضرورة، أم ضيق مقام السامع عن السماع والانتظار لسبب ما؟ فما دام لم يقيد الضيق فالاحتمالان واردان، والحذف مع المعرفة والاستحضار روعي فيه حق السامع، وقد يتكل السامع على هذا فيتشتت انتباهه، ويقل تيقظه، فيختبر المتكلم ذلك، فيترك " لتخييل أن في تركه تعويلا على شهادة العقل، وفي ذكره تعويلا على شهادة اللفظ من حيث الظاهر وكم بين الشهادتين"[٢] رفع "السكاكي" من قيمة الترك؛ لاعتماده على شهادة العقل، واتكاله عليه، وميله إليه، أي: حضوره، وعدم غيابه، فالعقل عنده قاطع في توجيه العقل نحو المحذوف، وإظهاره وتبيينه، فشهادة العقل إحضار للسمع، والقلب شاهد لذلك غير غائب عنه- "والشَهادة خبر قاطع"[٣]- وهي أقوى من شهادة اللفظ عنده، والحق أن الحذف يعتمد فيه أيضا على القرينة اللفظية، فالتخييل: إيهام وظن، وفي المثل:"من يسمع يَخَلْ": أي: يظن، أي: قصد المتكلم أن يظن السامع أن في الحذف عدول

(١) مفتاح العلوم ص ١٦٤

(٢) السابق ص ١٦٤

(٣) لسان العرب. مادة (ش هـ د).

إلى أقوى الشهادتين، فينشط، ويتنبه العقل إلى التماس المحذوف وتعيينه، ويتوجه إليه زيادة توجه.

٢ ـ إثبات المسند إليه:

عبر "السكاكي" بـ(الإثبات)[١] في العنونة للمبحث، ولم يعبر بـ(الذكر) كما عبر "الخطيب" ت ٧٣٩هـ وشارحو التلخيص، ثم زاوج في الشرح، فأفرد حالة واحدة بالإثبات أولا ثم عبر بـ(الذكر) في الباقي، فالتعبير بالإثبات؛ لأن قصد المتكلم التخصيص، والتعيين، ومنع إلباس السامع مع عدم وجود قرينة، فلا يتأتى مراد المتكلم إلا بالإثبات، وإلا كان إثباته عبثا ولغوا، وأما الذكر فـ "يذكر احتياطا في إحضاره في ذهن السامع لقلة الاعتماد بالقرائن، أو للتنبيه على غباوة السامع"[٢] إن مقصد المتكلم وغرضه المنوط به الكلام هو إفهام السامع مقصده بوضوح، وعدم وضوح القرينة داع إلى أن يحتاط المتكلم فيثبت المسند إليه أو يذكره؛ ليجعله من السامع على ذكر ليتضح عنده فيعلمه، وليس من الذكر بعد النسيان والغفلة، فلو كان كذلك؛ لكان تنبيها على غباوته، وقلة فطنته وفهمه، وعدم تنبهه، وغفلته، فغطى جهله عنه ما وضح، فلا يفهم إلا بالتصريح والتكرار، فيُنبَّه بالذكر.

وقد يذكر المسند إليه إطنابا وبسطا لضمان استمرار شد الانتباه والتيقظ، وجذب كل جوارح السامع؛ ليميل إلى المتكلم بسمعه، فيصغى، معملا قلبه للسماع "لأن إصغاء السامع مطلوب"[٣]، فالسماع مقصود إليه

---

(١) الثبات : تثبت في الأمر والرأي، والتأني فيهما، وتسكين للقلب، والحجة، والبينة، وثابته وأثبته: عرفه حق المعرفة. لسان العرب. مادة (ث ب ت).

(٢) مفتاح العلوم ص ١٦٥

(٣) السابق١٦٥

"وَأَنَا ٱخۡتَرۡتُكَ فَٱسۡتَمِعۡ لِمَا يُوحَىٰٓ "(طه:١٣)؛ ولأجل هذا يبسط الكلام، فيذكر المسند إليه بسطا للكلام ابتهاجا في مقام التشريف والتعظيم.

٣- المسند إليه معرفة:

إن المقصد الذي بني "السكاكي" مباحثه المترتبة بعضها على بعض هو الإفادة التامة التي عبر عنها النحويون بـ"يحسن السكوت عليها"(١)، أي: سكوت المتكلم، ويعدّه السامع إياه حسنا؛ لقرار الفائدة في نفسه، فالكلام مشتمل على المحكوم عليه وبه، فيُفهم المعنى من اللفظ دون احتياجه إلى شيء آخر، سواء تُرك المسند إليه أو ذكر، عُرف أو نكر، يقول: "وأما الحالة التي تقتضي تعرفه فهي إذا كان المقصود من الكلام إفادة السامع فائدة يعتد بمثلها... ولا شبهة أن احتمال تحقق الحكم متى كان أبعد كانت الفائدة في تعريفه أقوى، ومتى كان أقرب كانت أضعف، وبُعد تحقق الحكم بحسب تخصيص المسند إليه، والمسند كلما ازداد تخصصا ازداد الحكم بعدا، وكلما ازداد عموما ازداد الحكم قربا"(٢)، فالمسند إليه غالبا ما يكون معرفة؛ ليعرفه السامع، ويتهيأ للإخبار عنه بما لا يعرفه؛ ليكون للكلام فائدة يعتد بها، ويبعد عن اللبس، فعندئذ ينبغي أن يُعرَّف المسند إليه ويُخصص بما يعرفه المخاطب، ثم يؤتى بالخبر المخصص فيتمكن، أما إذا كان المسند إليه نكرة فالإخبار عنه مما لا يفيد المخاطب(٣)، فالفائدة التي تتحقق

---

(١) حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك. محمد بن علي الصبان الشافعي،٣١/١، ط١، دار الكتب العلمية بيروت–لبنان١٤١٧ هـ –١٩٩٧م.

(٢) مفتاح العلوم ص ١٦٦

(٣) "والإخبار عن النكرة لا فائدةَ فيه؛ ألا ترى أنك لو قلت: "رجلٌ قائمٌ"، أو "رجلٌ عالمٌ"، لم يكن في هذا الكلام فائدةٌ، لأنّه لا يُستنكر أن يكون رجلٌ قائمًا وعالمًا، في الوجود، ==

من الخبر كلما كانت مخصوصة بمعين معلوم كانت أتمّ وأكمل، وربط "السكاكي" فائدة الخبر بالحاجة إلى التعريف، فالتعريف يتناسب تناسبا عكسيا مع الإبهام، فكلما كان الحكم أبعد عن الفائدة ولازمها (مجهول) غير مخصص، كلما قويت الحاجة إلى تعريفه ليفيد السامع فائدة جديدة، فالأمر المجهول تقوى الحاجة إلى تعريفه، "الحكم كلما كان بعيدا من الذهن كان الإعلام به أكبر فائدة"(١) وكلما قرب تحقق الحكم من الإبهام كانت الحاجة إلى تعريفه أضعف، وهكذا المسند كلما ازداد تعريفا ازداد الحكم بعدا عن الإبهام، وكلما ازداد عموما ازداد الحكم قربا من الإبهام، فلا حاجة إلى تعريفه.

ويعرف المسند إليه بالإضمار؛ لأنه يزيل الإلباس بعدم تكرار الاسم الظاهر– والإلباس قد يكون مرده إلى المتكلم أو السامع– وهو خال عن الفائدة، ويحتاج تطويلا، ويصرف السامع عن التلقي، ويُعمّي عليه ويشوش، فلا تسكن نفسه إلى الخبر؛ لحاجته إلى ما يزيل الغموض والتعمية والإلباس، وقد نص "السكاكي" في أسباب تعريف المسند إليه بالإضمار على مقامي الحكاية والخطاب؛ لحضور المتكلم والمخاطب ومشاهدتهما، فلا يوهمان غيرهما، فالمشار إليه معلوم متمثَّل، وفي مقام الغيبة قال: "أو كان المسند إليه في ذهن السامع لكونه مذكورا أو في حكم المذكور لقرائن

==

ممّن لا يعرفه المخاطَبُ. وليس هذا الخبرُ الذي تُنزَّل فيه المخاطبَ منزلتَك فيما تعلم". ينظر شرح المفصل ٢٢٤/١

(١) عروس الأفراح ضمن شروح التلخيص. بهاء الدين السبكي، ٢٨٧/١، دار الإرشاد الإسلامي. بيروت. د. ت.

الأحوال ويراد الإشارة إليه"[١] ولم ينص على الغيبة؛ لأن الأصل في إيراد المسند إليه أن يكون معلوما للسامع، والإضمار خلاف العيان، وإذا كان غائبا فما الفائدة من ذكره؟ وما سبب تعريفه بضمير الغائب؟ المسند إليه الضمير متقرر وجوده في ذهن السامع؛ لكونه "مذكورا أو في حكم المذكور" أي: تقدم ذكره صراحة، وأشار الضمير إليه، فلا حاجة لإعادة ذكره خوفا من الإلباس، وميلا إلى الاختصار؛ لوجود ضمير يرجع إليه لفظا أو حكما، أو قرينة الحال: فيذكر الضمير من غير مفسر اعتمادًا على فهم السامع، أو يذكر ليفَّسر بمتأخر عنه اعتمادًا على وضوحه وحضوره فلا يخطر بالبال سواه؛ ، فالسامع مرعي عند إضمار المسند إليه، والمتكلم ليس حرا، فهو ملزم بإفهامه، ودفع ما يغمض ويشكل؛ ولذا كان تعبير "السكاكي" بكون المسند إليه في ذهن السامع، أي: حضوره في ذهنه وتقرره؛ ليضمن الإفهام وحصول الفائدة، ويكون يقظا متنبها لكي يتمكن من التواصل والفهم، وليست الإشارة بالضمير الغائب إلى المسند إليه شَرَكا متعمدا لاختبار تنبه السامع وتيقظه، ومعيارا على ثقافته، ولكن فهم الإشارة الخفية يقيس مقدرة المتكلم على إثارة كلامه إعجاب السامع[٢].

٤ـ المسند إليه علما:

لا علم للسامع بما في نفس المتكلم، فيعرّف المتكلم شخوص كلامه ليحصل للسامع إدراك للأعيان، ويتمثل صورته في ذهنه مطابقة لما أدرك حقيقته عيانا، ويقطع عليه اللبس والاشتراك؛ ولذا يُعرَّف المسند إليه بالعلمية ابتداء

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٦٧

(٢) ينظر مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر.أ.أ.رتشاردز، ترجمة محمد مصطفى بدوي، ص٢٧٣ بتصرف، ط١، العدد٤١٦، المجلس الأعلى للثقافة٢٠٠٥م.

تحديدا له، وإحضارا له في ذهن السامع باسمه الخاص الذي لا أخص منه؛ ليتمثله بصفاته الكثيرة التي أغنى العَلَم عن سردها وتعدادها، سواء أكان العلم المذكور اسما أو لقبا أو كنية كما مثل "السكاكي"، يقول: "وأما الحالة التي تقتضي كونه علما فهي إذا كان المقام مقام إحضار له بعينه في ذهن السامع ابتداء بطريق يخصه"(١)، فالهدف من الإخبار هو الوصف الدقيق المحدد الذي ينبني عليه فهم ثم إفادة، ومن الصعوبة أن نعدد أوصافا للمسند إليه وهيئة تشترك بينه وبين الجميع، فالتعريف بالعلمية له طبيعته الخاصة التي لا يشترك فيها المسند إليه مع غيره شكلا وصفة ومضمونا كأنه علامة عليه يعرف به.

٥- المسند إليه اسما موصولا واسم إشارة :

أولا : الاسم الموصول: إن تعريف المسند إليه بأنواع المعارف المختلفة ليس ترفا لغويا وتنويعا للإبانة وتقريبا للملائم، بل إن المتكلم يصطفي نوعا بعينه من المعارف؛ ليحدد للسامع غرضه بدقة بما يناسب مقتضى المقام، وينص على مسند إليه بعينه يريد الإخبار عنه ليفهم السامع ويفيده فائدة ما، فيختار من المعارف ما يميز المُتحدَّث عنه من ناحية ويفارق عمومية الجنس البشري من ناحية أخرى، في وعي بحال السامع الذي لا يعرف من حال المُتحدَّث عنه إلا ما يخصصه بالذكر، فاقتضاء كون المسند إليه موصولا "متى صح إحضاره في ذهن السامع بوساطة ذكر جملة معلومة الانتساب إلى مشار إليه واتصل بإحضاره بهذا الوجه غرض مثل: أن لا يكون لك منه أمر معلوم سواه، أو لمخاطبك"(٢).

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٦٨

(٢) السابق ص ١٦٩

من عبقرية لغتنا العربية أن تتنوع فيها مظاهر الإعلام عن المتحدَّث عنه حتى ولو كان مبهما عند السامع والمتكلم لا يختص بمسمى، فيشار إليه بما عُلم من أمره، فيجُعل وصلة إلى تعريفه والإخبار عنه بما يفيد، فيستحضره الذهن، فيصير كأنه معلوما، وإذا كان الاسم الموصول كذلك فما العلة في تعريفه والإخبار عنه؟ العلة هي الإشارة إليه بالوصف الذي علمه السامع لغرض يقصده المتكلم، والتعبير عن مقصده بفعل مقترن بالتحديد والتخصيص والتوضيح يعود عليه بالنفع، مما يمكن السامع من الكشف عن المبهم ثم الفهم.

ومن الاعتبارات التي خصص فيها السامع بالذكر: أن يكون مقصد المتكلم إرشاد السامع، فيتوسل بالاسم الموصول؛ لقصد تنبيهه إلى خطأ اعتقاده "أو أن تومئ بذلك إلى وجه بناء الخبر الذي تبنيه عليه... ثم يتفرع على هذا اعتبارات لطيفة ... وربما جعل ذريعة إلى التنبيه للمخاطب على خطأ"(١) فيتذرع بالاسم الموصول المبهم؛ ليقول ما يريد ويكون في مأمن، والمأمّ هو التنبيه على الخطأ دون الاكتراث بالقائل(٢)، ووجوب الحيطة والحذر مع الإشفاق على المنصوح.

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٠

(٢) مثل "السكاكي" لهذا الغرض بقول عبدة:

إنَّ الَّذينَ تَرَونَهُم إخوانَكُم يَشفي غَليلَ صُدورِهِم أَن تُصرَعوا

من قصيدة ينصح فيها عبدة بنيه مطلعها:

أَبَنِيَّ إِنّي قَد كَبِرتُ وَرابَني بَصَري وَفِيَّ لِمُصلِحٍ مُستَمتِعُ

وقد كرر لفظة "قوم" منكرة ؛ لتركيزه على النصح والتنبيه دون اكتراث بالقوم، يقول:

لا تَأمَنوا قَومـــا يَشِـبُّ صَبِيُّهُم بَينَ القَوابِلِ بِالعَـداوَةِ يـُنـشَـعُ

فَضِلَت عَداوَتُهُم عَلى أَحلامِهِم وَأَبَت ضِبابُ صُدورِهِم لا تُنزَعُ

==

أو أن يكون قصد المتكلم إثارة ذهن السامع، وشغل تفكيره؛ فيسلك مسلك الإلغاز والتخييل والتشويق وذلك إذا كان الخبر عجيبا غريبا "وربما قصد بذلك أن يتوجه ذهن السامع إلى ما سيخبر به عنه منتظرا لوروده عليه حتى يأخذ منه مكانه إذا ورد كقوله:

والذي حارت البرية فيه ... حيوان مستحدث من جماد"[1]

فطرت النفوس على استشعار الدهشة بمعرفة الخبيء، وزوال الإبهام بالإيضاح، حتى يعرف الخبر مفصلا، فيتمكن في النفس ويكون له حسن موقع منها، والمتكلم أراد التمويه بأنه شاعر عالم، فأورد المعاني الفلسفية.

ثانيا: اسم الإشارة:

يتضافر المعنى النحوي مع الغرض البلاغي عند "السكاكي"، فيذكر أولا معنى الإشارة، وهي: الإيماء إلى حاضر ليبصره المخاطب بعينه وقلبه، يقول:" وأما الحالة التي تقتضي كونه اسم إشارة فهي متى صح إحضاره في ذهن السامع بوساطة الإشارة إليه حسا، واتصل بذلك داع مثل: أن لا يكون لك أو لسامعك طريق إليه سواها، أو أن تقصد بذلك أكمل تمييز له وتعيين"[2] وإحضار المسند إليه لا فائدة منه إلا إذا اتصل بغرض موجب له وداع، كأن تشير إلى جميع ما بحضرتك، وهو إبهام، لا يختص بمسمى،

==

قَومٌ إذا دَمَسَ الظَلامُ عَلَيهِمُ حَـدَجـوا قَنافِذَ بِالنَميمَةِ تـمزَعُ

كما أنه يبدو أنه يئس منهم، ولم يأمن مكرهم يقول:

إنَّ الكَبيرَ إذا عَصاهُ أَهلُهُ ضاقَت يَداهُ بِأَمرِهِ ما يَصنَعُ

ديوان عبدة بن الطبيب. دار التربية، بغداد ١٩٧١م.

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٠

(٢) السابق ص ١٧٠

فيلبس على المخاطب؛ لأنه لا يدري إلى أيها تشير، فتتعين الإشارة إلى محسوس بعينه؛ لتحضره عنده، والإشارة حددت المشار إليه وكشفت عنه، وأغنت عن تفصيله ووصفه، فلا طريق للمخاطب والمتكلم سواها، وتمييز المسند إليه وتعيينه بالإشارة إليه تصديرا للكلام بدليل حاجة السامع وهو الوجود والحضور، فيتميز المسند إليه أكمل تمييز وأتمه للإشارة الحسية إليه التي لا يتأتى معها اشتباه أو لبس مع التمثل القلبي له.

إن عملية الإبانة عند "السكاكي" لم تأت لغوا كيفما يتفق، ولكنه اشترط في المتكلم شروطا، واشترط في السامع أن يكون فَهِما ذا فطرة سليمة عارفا بصياغة الكلام، ثم يقصد تجهيله بتعريفه بالإشارة بقوله: " أو أن تقصد بذلك أن السامع غبي لا يتميز الشيء عنده إلا بالحس"(١) ومثل بشاهد شعري للفرزدق يهجو جريرا(٢)، وهما من كبار الشعراء، والهجاء مقام هزل، يتسمح فيه المتكلم، ويسف بذكر ما يُقبح وما يُسترذل، فقصد المتكلم إلى إعلام السامع أنه غبي، لا يتفطن للأمور، وغمر لا علم له بالأنساب، مجترئ على ما لا ينبغي، لا يدرك غير المحسوس، فيُنبه على غفلته وغباوته بالعدول عن المقالة إلى الإشارة الحسية.

٦- تعريف المسند إليه بالإضافة:

الغرض الأساس من مجيء المسند إليه على كيفيات مختلفة من التعريف هي تخصيصه وتحديده وكشفه وبيانه للسامع؛ ليحكم عليه بالخبر فتحقق له فائدة تامة، وقد ربط "السكاكي" بين وظيفة كل جزء من أجزاء الجملة نحويا وبين المناسبة التي تلائمها؛ ليطبق ذلك على ما يقتضي الحال ذكره،

---

(١) مفتاح العلوم ص ١٧٠

(٢) أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

فيذكر في مطلع كل مبحث بلاغي الوظيفة النحوية للمبحث، يبدأ من حيث انتهى النحو، فقسم مباحث علم المعاني تقسيما نحويا، مثل: تفصيل اعتبارات المسند إليه والمسند، فذكر مباحثهما على ترتيب أبواب النحو في التعريف والتنكير، والإطلاق، والتخصيص، والتقديم والتأخير، وبدأ كل مبحث بذكر الوظيفة النحوية له أولا، وهو أصل المعنى فيه، فتعرض للتراكيب "بتعيين ما هو أصل لها وسابق في الاعتبار"(١)، وفي هذا المبحث تحديدا يذكر وظيفة التركيب النحوي في معرفة السامع للمحكوم عليه وتحديده عنده، ثم يترقى إلى ذكر خواص التراكيب، والمقتضيات، والسر في تطبيق الكلام على مقتضى الحال، والاحتراز عن الخطأ في ذلك، فيذكر الحالة التي تقتضي تعريف المسند إليه بالإضافة قائلا: " متى لم يكن للمتكلم إلى إحضاره في ذهن السامع طريق سواها أصلا كقولك: غلام زيد، إن لم يكن عندك منه شيء سواه أو عند سامعك"(٢)، فمقصد كلامه أن التعريف بالإضافة يراد به الإضافة المعنوية المفيدة لتعريف شخص المضاف وتخصيصه – وهذه وظيفة نحوية للإضافة– فـ"غلام" نكرةٌ، ولمّا أضيف إلى "زيد" اكتسب منه تعريفًا وتحديدا في ذهن السامع؛ ولذلك نص في عنوان المبحث على هذا(تعريف المسند إليه بالإضافة) بخلاف المباحث الأخرى (المسند إليه علما أو اسم إشارة أو اسما موصولا)، فلم ينص على التعريف في عنونتها.

إن حضور السامع في ذهن المتكلم وتعريف المسند إليه من أجله حضور تفاعلي، ووعي بالعمليات العقلية التي يقوم بها السامع لتفكيك النص،

(١) مفتاح العلوم ص ١٥٣

(٢) مفتاح العلوم ص ١٧٣

واكتشاف عناصره التكوينية، والعلاقات التي تصل بينها، وتنتهي بإعادة التركيب الذي يكشف عن العلاقات بين البُنى وأبعادها الوظيفية(١).

٧- المسند إليه معرفة موصوفة:

إذا ورد المسند إليه معرفة فهو كاف في تمييزه عند السامع والكشف عنه، ويوصف إذا كان الحال يقتضي ذلك، وهو إذا كان الموصوف(المسند إليه) متضمنا معنى الوصف فيكون تأكيدا له، فيمكن معنى المؤكَّد في نفس السامع، يقول "السكاكي": "وأما الحالة التي تقتضي وصف المعرف فهي إذا كان الوصف... تأكيدا له مجردا كقولك: أمس الدابر لا يعود، وكان ما تعلق بالوصف مطلوبا ولما ترى من طلب التمييز بالوصف وامتناع أن تميز شيئا عن شيء بما لا تعرفه له يمكنك أن تتوصل به على أن حق الوصف كونه عند السامع معلوم التحقق للموصوف"(٢) فغرض "السكاكي" من وصف المسند إليه(أمس) بالمعرفة (الدابر) تكرير المعنى دون اللفظ، وتقرير المؤكَّد، وما علق به في نفس السامع، وتمكينه في قلبه، لتوهم غفلته عن قيمة الوقت، وعدم الاكتفاء بمعرفته، أو توهُّم الجَهالة بالموصوف، أو تنديمه على ما كان من تقصير، وقد استطرد "السكاكي" بذكر خلاف نحوي وتعليل منطقي يثبت من خلاله جواز وصف المسند إليه بالمعرفة؛ لأن

(١) ينظر نظريات معاصرة. د. جابر عصفور، ص٢١٤ بتصرف، مكتبة الأسرة ١٩٩٨م.

(٢) مفتاح العلوم ص ١٧٥

الصفة معلومة، فلما كان الموصوف معرفة اقتضى أن تكون الصفة كذلك[١].

٨- تأكيد المسند إليه :

إن السامع عنصر فاعل في توجيه بيان المتكلم، فالمتكلم ليس حرا، وهو ملزم من داخله بمقصد وباعث، وملتزم من خارجه بما يرفع عن السامع الجهل واللبس؛ ولذلك يؤكد المسند إليه "وأما الحالة التي تقتضي تأكيده فهي إذا كان المراد أن لا يظن بك السامع في حملك ذلك تجوزا أو سهوا أو نسيانا كقولك: عرفت أنا، وعرفت أنت، وعرف زيد زيد، أو نفسه، أو عينه"[٢] فزاد المتكلم على البناء الأصلي للجملة زيادة مكررة، فازدادت الإفادة قوة بسبب ذلك؛ لأن السامع عرف أن ثم معرفة أسندت لمسند إليه مخصوص، وهو مستوى نمطى متعاهد، يفيد فائدة أولية يحسن السكوت عليها ولكن المتكلم لم يسكت لحاجة المقام إلى إشباع المعنى بالتكرير والتوكيد، واستشعاره أن مراده لم يستبن لمخاطبه، أو أن المخاطب غافل وقت التلقي أو ناس؛ ليكون في تحلة من تبعات ما ألقي عليه، فاحتاط المتكلم؛ ليبعد عن السامع احتمال التجوز في إسناد الفعل إلى غير من هو له، فيفتح الباب لتأويل ومراجعة ومفاوضة، أو لدفع توهم السامع سهو المتكلم وغفلته في إثبات المعرفة لغير من هو لها، فيحضره مكررا لدفع السهو، أو لدفع توهم السامع نسيان المتكلم ذكر المسند إليه وتركه وذكر

---

(١) ينظر (حكم الموصوف بالنسبة إلي الصفة في الخصوصية) في شرح المفصل. الزمخشري، تقديم: د.إميل بديع يعقوب، ٢٤٩/٢، ط١، دار الكتب العلمية ١٤٢٢هـ . ٢٠٠١م.

(٢) مفتاح العلوم ص ١٧٦

غيره، فيحتاط المتكلم من عوارض الغفلة والسهو والتزيد بأن يمكن المعنى في نفس السامع.

٩- عطف المسند إليه:

رتب "السكاكي" مباحثه في اعتبارات المسند إليه على ترتيب أبواب النحو متوخيا معاني النحو في معاني الكلم؛ لإفهام السامع، فذكر أولا ما كان الثاني فيه الأول، فيتصل بغيرِ حرف كالنعت، والتأكيد، وعطف البيان، والبدلِ، ثم العطف بحرف؛ من قِبل أن الثاني فيه غير الأوّل، فلم يتصل إلّا بحرف؛ فلذلك لم يحتج إلى حرف(١)، فكل خطاب يحتمل أن يشك السامع فيه أو يخطأ احتيج من المتكلم أن ينص في خطابه على ما يصرف ذهن السامع عن الخطأ، فجيء بالعطف لميل السامع إلى الصواب، يقول "السكاكي": " أو كان المراد رد السامع عن الخطأ في الحكم على الصواب كقولك: جاءني زيد لا عمرو لمن في اعتقاده أن عمرًا جاءك دون زيد أو أنهما جاآك معا، وكقولك: ما جاءني زيد لكن عمرو لمن في اعتقاده أن زيدا جاءك دون عمرو"(٢) فالعطف بـ(لا) في المثال الأول لقلب اعتقاد السامع إذا اعتقد الخطأ، أو ظن الاشتراك في المجئ فيفرد أحدهما به، وفي المثال الثاني لقلب اعتقاد السامع، فالمتكلم ينسج كلمه، ويحرك وحدات سياقه على نسق مخصوص مما يمنح السامع فرصة للتفكير فيما يسمع، فيتحول فكره الداخلي إلى فهم واع يغيب بعض العناصر ويحضر أخرى، فالعطف بـ(لا) جذب المتلقي إلى أن المقصور عليه هو ما قبل (لا)، فالثابت المقصود هو المقابل لما بعد(لا)، والعطف بـ(لكن) أبعد المقصور عليه عن النفي بـ(ما)،

(١) ينظر شرح المفصل ٢/ ٢٧٦

(٢) مفتاح العلوم ص ١٧٧

وجذبه نحو ما بعد (لكن)، فأدخل المتكلم المتلقي دائرة الاحتمال، وكسر الاعتيادية والرتابة كسرا بالغ التأثير في المتلقي.

١٠ـ تنكير المسند إليه:

الأصل في المسند إليه المحكوم له أن يكون معلوما عند السامع؛ لتتحدد الإفادة من الإخبار عنه أو الإسناد إليه، فكلما كان المسند إليه مخصصا كانت الحاجة أقوى إلى معرفة ثبوت الحكم له، وكلما كان عاما مطلقا كانت الحاجة إلى معرفته أضعف؛ لقلة جدواه وفائدته، فالاسم النكرة عام واقع على كل شيء لا يخص واحدا من الجنس دون سائره، كما أن النكرة بعضها أنكر من بعض(١) فلا تجد النفس صعوبة في تقبله والتصديق به؛ لشيوعه وعدم تعيينه "لأنه لا طريق لك على تعريف الزائد على هذا القدر لسامعك"(٢)، فالمتكلم لا يعرف من حقيقة المتحدَّث عنه شيئا حقيقة أو مدعيا تجاهلا(٣) بسوقه معرفته مساق الجهل؛ لغرض في نفسه كالإيهام على السامع، أو استدراجه، أو لومه، أوتنبيهه على غفلته، أو تعليمه لجهله، أو تبكيته، أو لومه، أو إثارة كامن، فالمتكلم بمنزلة خالي الذهن عن المعرفة التامة؛ لعموم المسند إليه وإيغاله في التنكير كما في مثل: (شيء ما موجود) "وهذا ما لا تجد النفس صعوبة في تقبله والتصديق به؛ لكون احتمال ثبوت الحكم وتحققه قويا، ما دام ذلك الشيء عاما مطلقا، ليس لدى

---

(١) ينظر المقتضب. أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تح: محمد عبد الخالق عظيمة، ٢٧٦/٤: ٢٨٠، عالم الكتب. بيروت. د. ت.

(٢) مفتاح العلوم ص ١٧٩

(٣) ينظر المطول. سعد الدين التفتازاني، ص٨٩، المكتبة الأزهرية للتراث.د.ت.

نفس المتلقي معرفة سابق بخصوصه، لتتخذ على ضوئها موقفا محددا من حيث القبول أو الرفض"[١].

١١ـ تقديم المسند إليه على المسند:

١- التشويق: الأصل في المسند إليه (المحكوم عليه) أن يتقدم المسند لا على نية التأخير، فلا يحوّل عن مرتبته؛ لأنه قار في مكانه، ولا مقتضى للعدول عن ذلك إلا لنكتة، فيتقدم المسند إليه إذا كانت العناية بذكره أهم إذا أريد تمكين الخبر في ذهن السامع؛ لأن في المبتدأ تشويقا إليه "وإما لأن في تقديمه تشويقا للسامع إلى الخبر ليتمكن في ذهنه إذا أورده، كما إذا قلت: صديقك فلان الفاعل الصانع رجل صدوق وهو إحدى خواص تراكيب الأخبار في باب الذي"[٢]، فالتشويق حاصل لما مع المسند إليه من الوصف قياسا على التشويق الحاصل في الإخبار بالذي لما معه من الصلة، ثم يتوجه ذهن السامع إلى ما سيخبر به، فالحاصل تشويق يتبع بتمكين، فيكون ألذ في النفس وأوقع.

فغاية المتكلم وغرضه تمكين الخبر في ذهن السامع، وهذا قد يتحقق بالتوكيد، أو بالإشارة الحسية إليه، أو تعريفه بالعلمية، ولكن "السكاكي" لم ينص على شيء من ذلك، واختار التمكين بغرض معنوي، وهو التشويق، وهو: نزاع النفس إلى الشيء[٣]، والنزاع فِعال بين طرفين، طرف حاضر يطلب المعنى ويقتلعه ويستلبه من الأوصاف التي كشفت عنه في المسند إليه، وهو السامع، وطرف غائب مطلوب منه التخمين والعطاء، وهو النفس،

---

(١) الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية. د. مجيد عبد الحي ناجي، ص١١٨، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ١٤٠٤هـ . ١٩٨٤م.

(٢) مفتاح العلوم ص ١٨٠

(٣) لسان العرب. مادة (ش و ق).

فالنزاع صراع فكري ونفسي، وحوار ممتد داخلي مَعْنِيّ بتقديم إجابة لسؤال غير مباشر افترضه المتكلم عندما أطنب بذكر أوصاف عدة للمسند إليه، فترد الإجابة بالمسند تقرير وإثبات وتمكين.

٢- التعجيل بالمسرة، والتبشير بما يسر: المتتبع لحركة المعنى في مطالع سور القرآن العظيم يجده كثيرا ما يهيئ النفوس بالمسرة والحمد، قال تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ (الفاتحة٦: ٧)، وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ (البقرة١: ٥)، وقد فطرت النفس الإنسانية على الميل إلى ما يسرها ويبسطها، والنفرة من ما يسوؤها ويقبضها، وقد اتكأ "السكاكي" على هذا المنزع النفسي، فقال في تقديم المسند إليه على المسند "وإما لأن اسم المسند إليه يصلح للتفاؤل فتقدمه إلى السامع؛ لتسره أو تسوءه"(١)، وذكر التفاؤل وعدم ذكر التطير يحتمل وجهين: الأول: امتثالا لقول المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم "عَنْ عُبَيْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُتْبَةَ، أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ، قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "لَا طِيَرَةَ وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ" قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ: "الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ"(٢)، والثاني: أن الفأل يكون فيما يحسن وفيما يسوء(٣)،

(١) مفتاح العلوم ص ١٨١

(٢) صحيح مسلم. أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، ١٧٤٥/٤، كتابُ (السَّلام)، بَابُ (الطِّيَرَةِ وَالْفَأْلِ وَمَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الشُّؤْمِ)، حديث رقم ٢٢٢٣، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة : ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م.

(٣) لسان العرب. مادة (ف أ ل).

وحركة المعنى على هذا الوجه التقابلي تتوزع على حالين للسامع، فإما بسطا وإما قبضا مسايرة لأفعال العباد التي يُمحصون بها إما خيرا وإما شرا، وهذه الثنائية الفعلية تعلي الخير على الشر، وتباعد بينهما، وتستحضر رد فعل السامع إزاءها، فعند سماع اسم المسند إليه الممدوح (سعيد) أو المذموم (سفّاك) ينتقل اللفظ من صماخ السامع فيمر بنفسه قبل ذهنه؛ لأن اللفظ المنطوق مَعْنيّ بالانفعالات والأحاسيس.

وهاتان الحالتان في تقديم المسند إليه على المسند هما التي جعل " السكاكي" فيها الغرض والمأمّ نفسيا، وقاس الأولى منهما على إيراد المسند إليه اسما موصولا، وهذا فيما يخص السامع، أما سائر الأغراض التي تخص السامع فكان المأم فيها ذهنيا قصدا إلى التعريف والتمييز والإحضار.

١٢- **ويخالف الظاهر ومعتاد الخطاب فيوضع المظهر(اسم الإشارة) موضع المضمر**؛ لاعتبارات مقامية، يقول: "واعلم أن جميع ذلك هو مقتضى الظاهر، ثم قد يخرج المسند إليه لا على مقتضى الظاهر فيوضع اسم الإشارة موضع الضمير ...وإما لأنه قصد التهكم بالسامع والسخرية منه كما إذا كان فاقد البصر أو لم يكن ثمَّ مشار إليه أصلا، أو النداء على كمال بلادته بأنه لا يميز بين المحسوس بالبصر وغيره، أو على كمال فطانته وبعد غور إدراكه بأن غير المحسوس بالبصر عنده كالمحسوس عند غيره"[(١)] اتكأ "السكاكي" على المدرك الحسي؛ ليحكم به على فطنة السامع وبلادته، فالفهم السطحي المباشر لا يدرك إلا المحسوس الحاضر؛ لقصور إدراكه عن تمثل المعنويات المجردة الغائبة عن العين وتخيلها من طريق

(١) مفتاح العلوم ص ١٨٢

الفكر وخطرات البال، فلا يدرك من النص إلا إيقاعه الخارجي وعلاقته النحوية دون سبر أغوار النص، وقد يستطيع السامع أن يدرك المجرد والمعقول، ولكن المتكلم لم يهيأه ويستمله نحوه ويزكيه بل سخر منه ومن عقله وهو غير مقبول في حق فاقد البصر؛ لأن له قدرة على حسن تخييل الكلام ما لا يستطيعه المبصر، والإشارة الحسية للمسند إليه بالنسبة له تحدث خللا يعوق عملية التواصل والإبلاغ؛ لأن السماع هو الوسيلة الوحيدة لإدراك الكفيف الكلام المنطوق، والتواصل معه، هذا لو كان الكلام على حقيقته، وقد يكون تعريضا بمن لا ينتفع بما يسمع، فلم يفهم معناه، فنزل منزلة الكفيف الذي لا يعرف حقيقة ما يُشاهَد، تنزيلا للموجود منزلة المعدوم، وإذا لم يكن ثَمَّ مشار إليه فالمتكلم يقصد السخرية بالسامع الغافل والتهكم به؛ لتقصيره وتفريطه، إن نص "السكاكي" يشير إلى اختلاف طبقات المستمعين في التلقي والفهم، فاسم الإشارة يساعد على الكسل العقلي لتمييزه الأشياء تمييزا كاملا، وهو من ناحية أخرى يشير إلى استهلاك الذوات بالإشارة إليها بالقريب المبتذل، وهذا ما يضع السامع تحت تأثير أن ما كان حسيا كان أقل درجة في العمليات العقلية، وما كان عقليا كان أشرف وأعظم؛ لاحتياجه إلى الفكر في تحصيله.

واختياره اسم الإشارة دون سواه في هذا الموضع؛ للإشارة إلى أن وجود حاسة السمع ملغاة مُنزلة منزلة المعدوم، لا يعتد بها[1]، فيقع الاعتبار

(١) ينظر أسرار البلاغة عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني بتصرف، تح: محمود محمد شاكر، ص٧٩، ط١، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة ١٤١٢هـ. ١٩٩١م.

بالبصر، ولكن المخاطب لم يفهم مسموعا، ولم يعتبر بمُبصَر، فلم يستفد شيئا؛ لبلادته، وسوء سمعه وفهمه.

١٣- وضع المضمر موضع المظهر:

يخاطب "السكاكي" ببيانه مخاطبا عارفا بصياغة الكلام بطريقة الكيف لا الكم، مستعينا بفكرة التوقع التي تلزم المخاطب بفك شفرات النص، ورصد الغائب عن فضائه، وهو الفاعل المضمر المبهم على شريطة التفسير في باب (نعم وبئس)، وإضمار المسند إليه (الشأن والقصة والحديث) في باب (المبتدأ والخبر)، لعلة بلاغية تتعلق بالسامع وهي" ليتمكن في ذهن السامع ما يعقبه وذلك أن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقي منتظرا لعقبى الكلام كيف تكون فيتمكن المسموع بعده فضل تمكن في ذهنه وهو السر في التزام تقديمه."[١] فالضمير المبهم المكني عنه مجهول، لم يتقدمه ظاهر يعود إليه، فلزم تفسيره بما بعده" ليكون هذا التفسير في تبيِينه بمنزلة تقدم الذكر له"[٢]، فإذا كان كذلك تشوقت نفس السامع إلى معرفته، فإذا عرفته قوي حصوله في ذهنه وتمكن في نفسه" لأن ما يحصل بعد التعب ومعاناة الطلب له في القلب محل ومكان لا يكون لما يحصل بسهولة"[٣]، ولزيادة التمكين يوضع المظهر موضع المضمر بعد ذكره ظاهرا في قوله تعالى:"ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ" (الإخلاص:٢) بعد قوله:"قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ"(الإخلاص:١) فوضع ضمير الشأن موضع المظهر أفاد تمكين ما بعده، وكذلك الصفة المشبهة (أحد) تفيد تمكن الوصف في موصوفها بأنه ذاتي له، ثم إظهاره ثانية في

(١) مفتاح العلوم ص ١٨٣

(٢) شرح المفصل ٢٩٤/٤

(٣) المطول ص ١٢٨

موضع إضماره – والضمير به إبهام– زيادة تمكين له وتخصيصه جل جلاله بالوحدانية والصمدية والتعظيم، ولا شك أن الإظهار يناسب مقام الجلال والعظمة أكثر من الإضمار، وينفي اعتقاد الشركة، ويؤثر في نفس السامع تأثيرا بليغا؛ لظنه إعادة المسند إليه مضمرا، فإذا أظهر باغت النفس وكان له مزيد الاعتناء والتمكين، فمقام العظمة والإجلال والتفرد لا يناسبه التقنع والترميز والكناية والإضمار؛ ولذلك يظهر المضمر، وكذا مقام الترهيب لا تقوم الحكاية فيه مقام الشخصنة، فيظهر الفاعل الرئيس ائتناسا بالنفس وتحديا للسامع بصرف انتباهه عن الموضوع إلى الفاعل زرعا للخوف في القلب، ونزعا للأمن منه، وإسكان الخوف مكانه، وتجديدا للإجلال والمخافة والرهبة والتوقير؛ فإذا هاب الإنسان شيئا عظَّمه "وتترك الحكاية إلى المظهر إذا تعلق به غرض فعل الخلفاء حيث يقولون: أمير المؤمنين يرسم لك مكان: أنا أرسم وهو إدخال الروعة في ضمير السامع وتربية المهابة"(١).

مقام الإضمار مقام حكاية أو خطاب أو غيبة، وإبهامه غير مناسب للأغراض التي ذكرت في وضع المظهر موضع المضمر من تهكم بالسامع والسخرية منه أو إظهار كمال بلادته؛ فهذه الأغراض تستدعي حضور السامع وتمييزه باسم الإشارة للصق العيب به فلا يستطيع أن ينفك عنه، والتأثير فيه تأثيرا سلبيا دون النظر إلى المنظور الخلقي، فالتأثير أصبح هدفا في حد ذاته، والتعبير بالمظهر (اسم الإشارة) موضع المضمر نهج حكاه القرآن العظيم عن الساخرين والمستهزئين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذۡكُرُ ءَالِهَتَكُمۡ وَهُم بِذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ

(١) مفتاح العلوم ص ١٨٣

هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ (الأنبياء:٣٦) وقال تعالى:﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ (الفرقان:٤١)، وقال تعالى:﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ (المؤمنون:٢٤)، وقال تعالى:﴿أَمۡ أَنَاْ خَيۡرٞ مِّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ مَهِينٞ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ (الزخرف: ٥٢)، فالمتكلم أراد سبك السامع سبكا جديدا يتوافق مع منتجه الدلالي.

١٤- ويتنقل المتكلم بين الضمائر ملتفتا:

المتكلم حرٌّ في شعوره وإحساسه، ولكن منطقه مقيد بجمهوره الذي يكتب له، والعقل ذو إضمار، واللغة إضمارية، فلا يقصد المتكلم أن يقص كل شيء، بل هناك كلمات هي مفاتيح لغرضه، فيتنقل بانسيابية وحرية بين مفردات اللغة وأساليبها مزاوجا بين الإظهار والإخفاء مضمرا في جنباته أغراض وأسرار لايبوح بها بل يستنبطها العقل الدراك والسامع الفطن الذي اختاره ليفهم عنه ما يضمره، ومن الأساليب البلاغية التي يتنقل المتكلم فيها ويقفز بالمخاطب قفزات مختلفة متحررا من النمطية، منحرفا عن النسق اللغوي المعروف، مخادعا عينه، مضللا توقعه أسلوب الالتفات الذي عده "السكاكي" جائزة الضيف (المستمع)، فجعل التنقل بين الحكاية والخطاب والغيبة "أدخل في القبول عند السامع، وأحسن تطرية[١] لنشاطه، وأملأ باستدرار إصغائه"[٢] وهو بذلك ينقي عملية التواصل من غفلة السامع وشروده، ولم يتطرق لذكر الفوائد في هذا الموضع؛ لأن بغيته جذب انتباه متلقٍ مخصوص، وامتلاك إصغائه، ثم ترقى إلى ما بعد السماع وهو الفهم، ثم إدراك لطائف المعاني مترقيا بالسامع المدرك له إلى درجة التفرد في

(١) التطرية: التجدد، وطري يطرى إذا أقبل. لسان العرب. مادة (ط ر ا).

(٢) مفتاح العلوم ص ١٨٤، السكاكي ناقل لكلام الزمخشري. الكشاف ١٤/١

البلاغة، أو الحذق والتمهر، ثم الإتقان والتبصر وهي ما سمى أصحابها بـ(العلماء النحارير).

ولم يقتصر نظر "السكاكي" في بحث (الالتفات) على الوظيفة الجمالية: التفنن في الإيراد، والمخالفة بين الأساليب، ولكنه جاوز ذلك بذكر الوظيفة البلاغية لهذا الأسلوب، يقول: "وهذا النوع قد يختص مواقعه بلطائف معان ...ومتى اختص موقعه بشيء من ذلك كساه فضل بهاء ورونق، وأورث السامع زيادة هزة ونشاط، ووجد عنده من القبول أرفع منزلة ومحل إن كان ممن يسمع ويعقل وقليل ما هم، أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون"(١).

أثر الالتفات على السامع: الانتقال من ضمير إلى آخر يحوي في أصدافه دررا مكنونة (لطائف معان)، يجدد نشاط السامع، ويضمن استجابته رضا وقبولا عملا وفعلا، فالهزة التي تأخذ السامع هزة أريحية وبشرى، تبعث على الحركة العاجلة، وإيثار الفعل، والخفة إليه؛ بسبب القبول النفسي والاقتناع بالمسموع الذي انتقل من حيز الأذن إلى حيز الفكر والإدراك، فلا يستهلك السامع الكلام بل يلتقط فرائده ويغوص على درره، وهذا ما عرض به "السكاكي" في قوله: "إن كان ممن يسمع" فنفي أثر السماع، وهو الفهم، وجعل هذا الفهم هو الفارق بين مفسري القرآن الكريم "ولأمر ما وقع التباين الخارج عن الحد بين مفسر لكلام رب العزة ومفسر، وبين غواص في بحر فرائده وغواص"(٢)، فالسمع عنده هو السماع الواعي المدرك لحقيقة ما يقال، وإدراك اللطائف والفرائد من غير المقال.

---

(١) السابق ص ١٨٦

(٢) المفتاح ص ١٨٦

المبحث الثالث

السامع في تفصيل اعتبارات المسند

١ـ ترك المسند:

المتلقي لوحة استقبال بالغة الحساسية، قابلة للتأثر الداخلي والخارجي، والتأثير مستهدف في ذاته، ففي مقام الحذف يعتمد المتكلم على ذكاء المتلقي وفطنته، فالذكي يكفيه الإلماح، فيبقيه المتكلم في حالة انتظار لا تعرف الإرواء، ويجعله مسئولا عن إتمام بنية تركيبية منقوصة، فالسامع هنا شريك المتكلم، حاضر في ذهنه في لحظة إبداعه، فيحمّله إنتاج المعنى وتقدير المحذوف تقديرا مضمرا في نفسه دون إخراجه إلى اللفظ وإيقاعه في السمع ربأ به عن وصمة التقليد والتلقين، فالمتكلم مبدع يقصد اختبار السامع هل يتنبه عند قرائن الأحوال، أو ما مقدرا تنبهه عندها(١)، وقرائن الأحوال لا تنهض بها العبارات، يدركها العقل دون حاجة إلى تفسير وتوضيح، كأحوال النفوس من غضب وسرور، والتفريق بين حمرة الخجل وحمرة الغضب، وصفرة الوجل وصفرة المخوف والمرعوب وغيرها، ومباشرة الحادثة وظروفها وما يكتنفها من ملابسات، وهيئة المتكلم، وهذا كله لابد في فهمه من عقل مع قرينة حال حالية تساند القول، يتشابك فيها عمل الحس والعقل، ولابد فيها من المشاهدة؛ لأن دلالة اللفظ قد لا تفي بالوصف، ولا تنضبط بخط ولا لفظ، فنقل قرينة الحال على ماهي عليه متعذر، فتبين القرينة الحالية مراد المتكلم، وتدل على الباطن، فدلالاتها عقلية من مستتبعات التراكيب، وهذا فيما يخص المنطوق من القول، لأن "السكاكي" خص السامع بالذكر، وقصد إلى معرفة مقدار تنبهه.

---

(١) مفتاح العلوم ص١٩١

٢- ذكر المسند:

إذا أريد النيل من المخاطب، واتهام عقله بأنه لا يفهم بالقرائن تعريضا بغباوته يذكر المسند، وقد سبق الحديث عن ذلك في ذكر المسند إليه(١) .

٣- المسند اسما معرفة:

يأتي المسند إليه معرفة لأنه محكوم عليه، ولا يشترط ذلك في المسند؛ لأنه يكتسب تخصيصه من تعريف المسند إليه فالغرض هو تشخص المسند إليه وتعرفه عند السامع، ولكن إذا كان المسند اسما معرفا ازداد الحكم بعدا عن الإبهام، فتتحصل الفائدة من مجموعهما (المسند والمسند إليه) بأن يستفيد السامع فائدة الخبر وهي الحكم على أمر معلوم بأمر آخر معلوم له، أو لازم الحكم، وإن كان يجهل نسبة أحدهما إلى الآخر، ولكنه عالم بهما منفردان، فيجب تقديم المسند إليه على المسند؛ لتساويهما في التعريف، وإذا توهم السامع أن المسند هو المسند إليه فيؤخر المسند لأمن اللبس، كما إذا أراد السامع تعيين المسند إليه فيتقدم على المسند.

وإذا رجا السامع أمرا ما فإنه يعقد قلبه عليه، ويلزم فكره، ويقرب من نفسه، ويستوثق من تحققه، فيعجل بذكره ويقدمه كقولك لمن يعقد قلبه على خسارة خصمه ويرجوه: قد هلك خصمك، بتقديم المسند، فالسامع مترقب للهلاك، ولا يعنيه من حال الخصم إلا وقوع الهلاك به، وهو متوقع لذلك، وقلبه معقود به، فحدوث الفعل مما لا يُشك فيه، ولا ينكر؛ لأن المتكلم عاقد قلبه بهلاكه، متوقع له، فأولية المسند في الذكر أكسبته قوة، ولذلك لم يعرف المسند إليه(خصمك) بالعلمية مشخصا له باسم يخصه مع أنه شرط تحقق معنى الفعل، فلا قيمة للهلاك إلا بحصوله له، فما في نفس السامع من

(١) ينظر ص ١٥ من البحث.

الترقب والتوقع هو الذي جعل المتكلم يخبر عن الخصم بالهلاك، وخبر الفاعل قبله(١)، لأن المسند إليه اسم يحدَّث عنه بخبر ليفيد معنى تام، فيصير المسند هو الخبر عنه وإن تقدمه.

٤- المسند جملة:

نظم الكلام هو المعول عليه في البيان، وبتوخي معاني النحو التي هي مرد النظم تنشأ المزايا بتحديد العلاقات بين الكلم وترجمة ما تعنيه تلك العلاقات، وفي مقام إيراد المسند جملة مثّل السكاكي لذلك بمجيء المسند فعلا يفيد التجدد مقدما على ما يسند إليه مثل: أنا عرفت وهو عرف وزيد عرف، فالمتلقي في مواجهة تركيب متعدد الدلالة، فالقراءة الأولى: يقصد المتكلم إفادة المعرفة للمسند إليه مع وجود ضمير رابط بين المبتدأ والخبر يعود على المبتدأ؛ ليصير المسند الجملة جزءا من تمام المسند إليه، يفيد فائدة يعتد بمثلها، والقراءة الثانية: على التقديم والتأخير، فقوله: أنا عرفت أصله: عرفت أنا، والمقصود بالنكتة هنا هي القراءة الأولى التي تعتمد على اليقظة الفكرية والتنبه القلبي للسامع؛ لإلحاح المتكلم على حدوث الفعل حدوثا محققا مؤكدا في نفسه حياطة للسامع عن الغلط والتزيد، وتمكينه في نفسه، فالمأم والقصود هنا هو حدوث الفعل الذي هو محط الفائدة بوروده خبرا عن المسند إليه، فتقديم المسند إليه لا يفيد إلا إذا أسند إليه فعل يحصل منه، فإذا ورد الفعل حاملا في طياته ضميرا مؤكدا للمسند إليه المذكور أولا كان أدعى لحدوث الفعل وثبوته، فلا حدث بدون حادث.

---

(١) ينظر شرح المفصل ٢٢٣/١

المبحث الرابع

السامع في اعتبارات الفعل وما يتعلق به

١ـ ترك الفعل:

تتميز لغتنا العربية بالاقتصادية فتميل إلى الإيجاز، وهو ما يتطلب وعي المتكلم بما يُولِّد، وفطنة السامع لما يستقبل؛ فقد يغيب الحدث، ويصبح الفعل غائما في النص، مما يضمن عدم تكراره، فيفسح المجال للتداعيات والإيحاءات المدلول عليها، كما في جملة الاستفهام التي تقتضي الفعل وتطلبه، والتي لا تحتمل مجالا للشك في الفاعل للعلم به، فيسأل عن فعله إذا كان الكلام جوابا لسؤال مقدر تولد من رحم الكلام قبله(١)، وقد رفع السكاكي بلاغة هذا الأسلوب إلى مدى يبز السَّماك ويناطحه، ووصوله هذا المدى من الجودة والحسن شركة بين المتكلم والقارئ (السامع)، فالمنتج (المتكلم) ملزم بصفات العلم والبصارة والسحر والتمهر والإطلاع فيما هو محسوس ومتخيل، ظاهر وباطن، وهي صفات مقصودة لذاتها في المتكلم يجتمع فيها عمل العقل العبقري المُلهَم بمُنن الأفكار، المحسِن الاختيار، العارف بالموضع مع الوجدان النافذ لسرائر الأشياء وخوافيها، ودخائل النفس

(١) كما في قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرۡفَعَ وَيُذۡكَرَ فِيهَا ٱسۡمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ رِجَالٌ﴾ (النور: ٣٦) فعلى قراءة يُسبَّح بالبناء للمفعول، يكون رجال فاعلا بفعل محذوف من جملة هي استئناف، ودل على المحذوف قوله: يسبح كأنه قيل: من يسبحه؟ فقيل: يسبح له رجال، وهذا الوجه أولى من التقديم والتأخير بأن يكون قوله: في بيوت خبرا مقدما و(رجال) مبتدأ؛ ليكون الكلام متصلا بما بعده "لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٞ " متسقا معه، وعلى التقدير الأول، تكون جملة الجواب المقدر مستأنفة، فلا تعطف؛ لأن جملة الجواب تولدت من رحم الاستفهام المقدر، والاستفهام حرك السامع لأن يعلم من الذي يسبح؟ وما صفته؟ فأجيب عنه بأنه لا تلهيهم تجارة ولا بيع ويخافون يوما.

والفكر، فيوقظ الإحساس وينشط عمل العقل موصلا رسالته إلى بليغ مثله، مانحا الثقة لقارئ فَهِم[١] بصير بمقتضيات الأحوال، خبير بمذاهب الكلام وأغراضه، فاهم أسراره، مدرك لمسستتبعات تراكيب نظمه وخواصه التي يرتفع بها شأنه، فإذا كان السامع (القارئ) بهذه المنزلة استحق السماع؛ لميله بسمعه وجوارحه نحو الكلام وحضور قلبه وعيا لما يقال ورضا به، فيعمل عملا نفسيا من الاعتقاد والرضا، فتسخر الجوارح وتستجيب، وهذه هي الغاية المرجوة من الكلام المفيد المرتفع عن وصمة اللاغية.

ولم يكتف السكاكي بحسن تلقي القارئ وبلاغة إصغائه بل جعله يبذل جهدا يعادل جهد المتكلم، فلم يقدم إليه طعاما ممضوغا، بل قدح فكره، وراوغ توقعه؛ ليهتدي بنفسه، فالمتكلم ينتج، والقارئ يكتشف لا يستهلك، يحاور الكلام في صمت، ويناقش العبارات، ويقول بلسان المتكلم، ويعيد خلق بيانه من جديد إدراكا وفهما- واعيا عمد المتكلم إلى إيراد الحذف في هذا الموضع - فالمتكلم لا يكتب لنفسه- يعاونه التنبؤ والفهم الواعي والملاحظة الدقيقة، فإذا كان شارد اللب أو مضطرب التفكير أو جاهلا

(١) الحدث الأدائي الفعلي للكلام (النطق) قد تصرم بمرور الزمن ولم يبق إلا المدوّن؛ والسكاكي واع بذلك ولكنه كرر لفظة السامع على أسماع القارئ اثنتين وأربعين مرة في مفتاحه مع أنه يكتب كتابا يخص به عارفا بصياغة الكلام عاقلا متفطنا ذا فطرة سليمة لا سامعا غافلا دهما، وهذا مسلك القرآن العظيم ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ (ق:٣٧) قص القرآن الكريم أحوال الأمم السالفة إبلاغا منطوقا يُتلقى سماعا لقوم رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله أجمعين، ومكتوبا للعالمين أجمعين؛ لأن السمع إيناس الشيء بالأذن كما ذكر ابن فارس ينتج عنه إدراك فقبول فإجابة فعمل، أو إعراض وإحجام، ومراعاة لمقتضى الحال فقد يعبر البحث بـ(القارئ) بدلا عن السامع.

بجهات البلاغة خطّأ المتكلم، وأساء الظن به، وعوّق وصول الرسالة، وضيع هدفه من إبانته؛ ولذلك يقطع المتكلم الجواب عن السؤال المقدر تنبيها له، أو لإشباع توقعاته فلا يجعله يسأل؛ لكون حديثه غير مرغوب سماعه، أو لكيلا يشتت جمهور السامعين بالسؤال فيختلط الكلامان.

٢- ترك مفعول الفعل:

إذا قصد المتكلم العموم والشمول المعنوي ترك المفعول، فمقام المدح مقام خفة وطرب، يقصد فيه إلى المبالغة مع خفة الأسلوب مما يثقله ويتخمه ويقيده، فيقدم الأفعال خالصة لفاعلها دون إشباع بذكر ما تقع عليه محررة من القيود والمتتمات، فترك المفعول في قولهم: فلان يعطى ويمنع ويصل ويقطع ويبني ويهدم ويغني ويعدم تخلية لعدم الحاجة إليه؛ فذكره ينقض غرض المتكلم وهو التعميم، وعدم توهم السامع ارتباط الأفعال بأشياء مخصصة تقع عليها أفعال الممدوح، فحرك الأفعال وبعثر مفعولاتها في مخيلة السامع، فأصبحت المفعولات المسكوت عنها ذات تباينات كمية وكيفية عدة مع رشاقة العبارة وخفتها بإيجاز الكلام وإكثار المعنى، فقصد المتكلم أن يعلم السامع بلوغ الفاعل في فعل العطاء والوصل والبناء ومضاداتها الغاية والإجادة، والتوكيد على صدورها منه، وقدرته على الفعل ونقيضه، واستقصاء لجميع الأشياء المبهمة التي يصح أن تتعلق بالفعل، فتستغرق الأفعال جميع ما يمكن أن يدخل تحتها مما يصح أن يتعلق بها، فيتصور الذهن وجود صورة كلية للأفعال، فالحذف للمفاعيل لا يدل بالوضع على عموم، ولكن السامع يتصور العموم ما لم تتعلق الأفعال بمفعولات.

٣- التقديم والتأخير مع الفعل:

للسامع عند السكاكي اعتبار، فإذا قصد غرضا معينا نبهه، وخصه بالذكر مصرحا به في بعض الأغراض التي يحتمل فيها حدوث لبس أو

توهم أو جهل، واهتمام بالاستجابات المختلفة للكلام مع الاهتمام بالمتلقي لها، وقد بدا هذا الاهتمام في مقام تقديم المسند إليه على المسند الفعلي لما يفرزه هذا المسلك من قصدية المتكلم إلى التقديم وإنتاج معنى معين يصحح به خطأ السامع أو يرده إلى الصواب، وهذان الغرضان هما العمود الذي أقام السكاكي مبحث التقديم والتأخير عليه، ولا يمكن الحديث عن التقديم والتأخير دون التحدث عن الشخص المدرك للكلام، فالسامع يستقبل الكلام ثم يكوِّن المعنى على حسب فهمه وعلمه بالأحوال المحيطة بالخطاب، وقد تكون استجابته للكلام موافقة لغرض المتكلم ومقصده، وقد لا تتوافق فيحرك المتكلم مفرداته وصياغته بما يصحح الخطأ ويرده إلى الصواب تحقيقا للتواصل الإيجابي مع السامع وإقرارا لمبدأ الدقة باستقرار المعنى في نفس المتلقي ووضوحه بتحديد فاعلية شخوصه، فقولهم: أنا سعيت في حاجتك هذا المثال أقيم على أن سعيا قد كان ولكن أخطأ السامع في نسبته إلى فاعله، أو أشرك مع الفاعل غيره في الفعل، فيصحح التقديم اعتقاد السامع بقلبه أو إفراد الفاعل، وهذا الغرض من التقديم تتجلى فائدته عند من له ذوق يستطعم به الأساليب، ويفرق بين ما قُدم وما أخر، وينتبه لتنظيم الكلمات وصياغتها والمتغيرات الشكلية التي تطرأ عليها، ويدرك سرها البلاغي.

إن اهتمام السكاكي بتصحيح خطأ السامع ورده إلى الصواب أولى عنده من الاهتمام بالمُقدَّم؛ ولذلك أخره عن الغرضين السابقين، ويستنبط القارئ من الأمثلة التي أوردها أن العلة من الاهتمام بالمقدم التحرز عن الخطأ.

٤ - تقييد الفعل:

متي يعبر السكاكي بـ(المخاطب) ومتي يعبر بـ(السامع)؟ ما سبق من أغراض تقديم المسند إليه والمسند تبين أن التعبير بـ(المخاطب) يكون في

المقامات التي يقصد فيها تحقيق الصواب ونفي الخطأ إذا كان المخاطب يحكم حكما مشوبا بصواب وخطأ، فينص على المخاطب لكونه مقصودا بالخطاب حاضرا، والمتكلم يراجعه[١]، ويصحح معتقده، وقد ورد هذا في باب قصر القلب والإفراد والتعيين، وتقييد الفعل بالشرط، واعتبارات الإسناد الخبري وكون المخاطب متحيرا أو منكرا، والعبرة هي تصحيح الخطأ أو الرد إلى الصواب، وهما مقامان تتعين فيهما المخاطبة والمراجعة؛ لحضور طرفي الخطاب البليغين، فالمتكلم بليغ يراجع بليغا مثله، عالما بمواضع التقديم والتأخير، فجمهور السكاكي جمهور بلاغي، فلا يضيع وقته في إفهام العوام بل يكتب للخاصة ويحاورهم، وهذا يشير إلى أن البلاغة علم خاصة.

وإذا كان المقام مقام تعريض عبر السكاكي بـ(السامع)؛ لأنه يخاطب عقل السامع، ويثوِّر تفكيره لتصحيح مساره، وذلك إذا عبر بالشرط مرادا به التعريض، في مقام المناصحة تلطفا مع السامع وبعدا عن إثارة كوامن غضبه بنسبته إلى ارتكاب الباطل، وسماه بـ"المنصف"[٢]؛ لأن المتكلم أنصف السامع، فرضي له ما رضي لنفسه وإن كان على خلاف معتقده.

(١) المخاطبة: الكلام بين اثنين، يقع فيها من التخاطب والمراجعة. مقاييس اللغة. مادة (خ ط ب).

(٢) ينظر مفتاح العلوم ص ٢٢٢: ٢٢٣

المبحث الخامس

اعتبارات السامع في القطع

ذكر السكاكي أن القطع يكون ١- للاحتياط: المتكلم حريص على إفادة السامع بتوصيل رسالته إليه كما هي في ذهنه، فيحميه من شبهة الخطأ، ويبرئ ذمته بالاحتياط إن غلب على ظنه ظن السامع أو خطؤه، فيحفظه من ذلك ويصونه، والوجه الذي حصل به الاحتياط لم يكن بزيادة نصية لفظية أو معنوية كالتوكيد والتحقيق والتثبيت، بل وجها نفسيا شعوريا مستبطَنا يغزو أعماق المتلقي ويطيف به، فالمتكلم يبوح بما تعج به نفسه من مشاعر الأسى والحزن من ظن محبوبته به، ولكنه يصبر نفسه فيعدل عن ذلك الظن(١)، ففصل بين ظنه وظنها، وقطعهما لاختلافهما معنى ودلالة، ومراعاة المعنى أولى من المناسبة اللفظية، فعلى المستوى النحوي التقعيدي يجوز العطف بين الشطرين ووصلهما، ولكن على المستوى البلاغي الإبداعي لا يجوز؛ لفوت مقصد المتكلم، وإنطاقه بما لم يقله، ومن ثمّ تضليل السامع وإيهامه فيتبلَّد خاطره، ويتردد نظره ويتحيَّر، والقول بالاحتياط هنا أولى من الاستئناف؛ لأن الكلام متصل من داخله بوصلة معنوية، فالمقام عتاب بين مُحبَّيْنِ وهو لا يستدعي صوتا ثالثا يسأل.

٢- ويكون للاستئناف: جعل السكاكي السامع إزاء الاستئناف في حالين: إما متحرك للسؤال وإما متشوق للمعرفة، فالاستئناف: أخذ الشيء من أوله وابتداؤه (٢)، فكأن السامع ينتقل من رتابة المطرد إلى جديد يجذبه ويعطفه نحوه، فينشط ويثار لمعرفته، وذلك حينما تولد بنية الكلام تساؤلا يجعل

---

(١) وَتَظُنُّ سَلْمَى أَنَّنِي أَبْغِيْ بِهَا ... بَدَلًا أَرَاهَا فِيْ الضَّلَالِ تَهِيْم

(٢) مقاييس اللغة . مادة (ب د أ).

السامع يحاور ذاته ويحدثها، فلا تهدأ وتقر حتى يرد الجواب فتعيه وتميزه، فحذف السؤال وتقديره عملية باطنية تشغل بال السامع، يقتضيه مقامات الظن والزعم والمغالطة والمقاولة والمحاورة، وهذه المقامات يكون المتكلم إزاءها مواجها لمشكلة تصحيح الرأي، وتضليل المزاعم باتخاذ موقف مغاير، فيصبح الكلام منطويا على رأيين مزدوجين متعارضين، والمعارضة مخالفة، تقتضي فصل الكلام وابتداءه؛ ليكون أقوى تأثيرا ونكاية على المخالف، والمتكلم مؤسس لمعنى جديد لا معلل يبرر زعم المخاطب أو اعتقاده، فالفصل بمثابة وقفة شعورية انفعالية، يمايز المتكلم بها بين شعوره وشعور الآخر، وموقفه وموقف الآخر، وفي الآيات الكريمة أتى الفصل للمغايرة بين الكلامين معنى وموقفا.

السامع المتحرك للسؤال واع بما يقرأ، طالب للفهم، يتساءل عن المسكوت عنه، ويقارن ويفكر ليستخلص العلل والأسباب بواسطة إعمال العقل عن طريق القرائن والملابسات وما يثور في نفسه من انفعال إزاء الكلام تحكمه إشارات لغوية وقرائن تدرك بالعقل، فالتركيب الذي تبدى في صورة خبرية يشتم منه رائحة الإنشاء في الحيرة التي تبدت في سؤال مقدر متولد من وجود الفصل، وعمل العقل هو المحرك للسامع أن يسأل، فحركة السامع ذي الفطرة البيانية حركة عقل متشوق إلى المعرفة، وفكر مستنبط مدقق، وحركة جسد؛ لأن السامع يحرك لسانه عَجِلا مع ما يبدو للناظر من تغييرات في تعبيرات وجهه مستخبِرا، فاقتضت البلاغة أن يجيب المتكلم فاصلا بين إجابته والسؤال المتولد من القول أو الزعم أو الحكاية ليميزها السامع؛ لأن ضبابية المعنى وتظليله وتمنُّعه تجعله لا يبدو سافرا بل مجملا يشوق السامع إلى معرفة الإجابة، وكذلك يأتي الاستئناف في البدل؛ لما يتضمن من إجمال يحرك السامع أن يسأل، فيأتي الجواب مستأنفا مكررا فيه

المسند الفعلي مثيرا للانتباه ومولدا للإدهاش لمخالفة التوقع؛ لأن السؤال يفصل عادة عن الجواب، ويستأنف به إفادة جديدة للمتلقي، وهذا يقتضي حذف المسند الفعلي؛ لذكره ضمنا في السياق وصراحة في السؤال، فإذا تكرر كسر توقع السامع وقوى حبك الكلام، ووثق عراه.

وإذا كان المقام يقتضي المبالغة في وصف كمال الموصوف بالعظمة وبلوغ الغاية القصيا في الرفعة كان ذلك مظنة لأن يتوهم السامع تجوز المتكلم أو سهوه، فيفصل الكلام ويؤكد توكيدا معنويا بما يقرره في نفس السامع وذلك إذا كان الكلام إيضاحا وتبيينا، فالفصل بين جملتين ثانيتهما مؤكدة لسابقة بمعناها لا بلفظها مفسرة لها يكون حيث لا يقتضي المقام تفصيلات كثيرة عن المتحدَّث عنه والنظر إلى مواضع مختلفة منه، فالمأم والقصود هو التركيز على المعنى المقصود، وتقريره في نفس السامع، فلا يقتضي عطفا؛ لأنه لا مغايرة بين الجملتين ولا حاجة إلى الرجوع إلى جملة المعطوف عليه للبحث عن تمام المعنى وتصاعده، وإدراك مكمله، كما أن هناك ملابسة بين المعنيين تقريرا وتأكيدا، فالفصل أمر يرجع إلى غرض المتكلم وحاجة السامع لا الكلام.

المبحث السادس

السامع في اعتبارات الإيجاز والإطناب

أولا: الإيجاز: لم يتعرض السكاكي وهو يقعّد لعلم البلاغة إلى ما لا يمكن ضبطه، ففي حديثه عن الإيجاز لم يذكر إيجاز القِصر ولكن مثل له دون نصّ عليه؛ لأنه نسبي لا ينضبط، وفصّل في ذكر إيجاز الحذف؛ لبنائه على أمور يمكن ضبطها، ووكل تلمس المعاني التي وردت في أساليب منحرفة عن النسق المألوف للبناء النحوي إلى فهم السامع، وجعله الحاكم فيه، فلا ينبغي أن يخطِّئ ما ورد من ذلك خاصة أنه ورد في القرآن الكريم؛ ولذلك لا بد من توجيه المعنى بما يلائم البنية التركيبية، ثم يرد إليه ما يشبهه، ويقيس عليه، وهذا ما ذكره السكاكي آنفا أن يصل معنى البليغ إلى بليغ مثله، وتحدث في هذا المنعطف الضيق عن الوصل بالحروف (الفاء الفصيحة) التي لا تقع إلا في كلام بليغ في جواب الطلب والقسم، وماذا لو عدل عنها إلى (الواو)؟ وماذا لو فصل وغاير بين نوعي الأسلوب من حيث الخبرية والإنشائية؟ فأوّل وأرشد تعليما؛ لأنه فن من البلاغة لطيف المسلك، ثم فوض إلى فهم السامع في حال الفصل مع المغايرة بين نوعي الأسلوب معتمدا على تفسير المعنى لا تفسير الصناعة، ولم يرد التقدير، وتفويض السامع القياس على ما فهم ثقة به، واعتدادا ببلاغته، فهو ليس مجرد ناقل حرفي للكلام، بل يعيد صياغته إفهاما وتبيانا.

ثانيا: الإطناب: إمعان فيما تحت الكلام من المعانى، واستيعابه حتى لا يترك منه شيء، فكل زيادة جديدة لا تخلو عن فائدة جديدة، فيفصل الكلام ليشمل ويحيط، وقد استشهد السكاكي في حديثه عن الإطناب بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ (البقرة:١٢٣)، وجعل المقتضي للإطناب في هذا

المقام ١- خطاب الأمة بجميع طوائفها على اختلاف مقتضيات أحوالهم من الجهل والعلم، والاعتراف والجحود، والاسترشاد والعناد، والفهم والبلادة، إذا كان المقام حديثا عن يوم القيامة وأريد استيعاب أحواله، ونقشه في ضمائر الأمة، والضمائر مستترة، مكنونة في خواطر أصحابها وقلوبهم، والحديث غيبي مسموع، والخطاب جمهوري يستوعب جميع صنوف البشر، والمخاطب به عام، لا يختص به أحدا دون أحد؛ فلذا فصّل أحوال السامعين بالذكر، وهذه أول مرة ينص السكاكي على تفصيل أحوالهم، فالإطناب في هذا المقام اعتبارا لحال السامع الذي تتباين درجة تلقيه سمعا وفهما وإبلاغا، فلم يُوصَف اليوم بكونه يوما عصيبا أو شديدا أو مخزيا بل فصّل بنقش واستقصاء واستيعاب ما يكون من رفض جميع أنواع الفداء الحسي والمعنوي، وإبطال شفاعات الشفاعين، فالكلام عن حقائق مستقبلية غيبية مستورة، لا تُرجَى، ولا يكون السامع منها على ثقة، ولكن الحقيقة لا تحمي الناظر من أن يسيء رؤيته، وقد يخالج الشك قلبُه وصدره، فيتصور معه توهم كون بعض الأفعال نافعة مع الشرك تصورا مبنيا على أصل ناقص، فيُرَد؛ ولذا يقتضي حال السامع الإطناب بتقرير ما سيكون في موقف الحساب، فجاء الكلام تقريريا يثير ألوانا من الانفعالات تشبه المثيرات السمعية أو البصرية " ذلك لأن المعروض للقبول أول ما يؤخذ أخذا بحسبه من أخذ سمع أو عين، ثم ينظر إليه نظر تحقيق في المسموع وتبصر في المنظور، فإذا صححه التحقيق والتبصير قُبل، وإذا لم يصححه رد"[١] .

(١) مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل. أبي الحسن علي بن أحمد بن حسن الحرالي، تح: محمادي بن عبد السلام الخياطي، ص٢٦٠، ط١، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي. الرباط ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.

٢- باب "نعم" و"بئس":

إن ما يواجه القارئ لأسلوب المدح العام بـ(نعم) والذم العام بـ(بئس) عند السكاكي أولا: ما أحال إليه من تقدير السؤال وبناء المخصوص عليه دون تحديد أي الأبواب يقصد اعتمادا على يقظة القارئ وتنبهه، وصحة عقله، وتواصله الفعال الذي قرر صحة ما أحال عليه السكاكي، واعتبره مُسلَّما به، والإحالة هنا إلى باب الفصل والوصل؛ ولذا كان المقتضى أن يرد باب الفصل والوصل متأخرا عن الإيجاز والإطناب في الترتيب التبويبي؛ لأن الإيجاز والإطناب داخل في دراسة الفصل والوصل، ثانيا: الاختصار، وهو وعي المتكلم بما يحذف من كلامه، وما يبقي منه، ووعي السامع بما يشير إلى المعنى، وما أراد القائل، فيستغني بالموجود عما ينبغي أن يكون، وذيل السكاكي حديثه عن الاختصار بقوله: "ولا يخفى حُسن موقعه"[١]، فعلام يرجع الضمير في قوله: (موقعه)؟ أيعود إلى موقعه في الكلام أم موقعه عند السامع الذي فهم الكلام المختصر الجامع للمعاني؟ ثم ترقى في ذكر النكات، فرتب الاعتدال على الاختصار نظرا إلى إطناب الكلام بذكر المخصوص بالمدح أو الذم جملة ضمن الجنس، ثم اختصاره بترك المبتدأ[٢]

---

(١) المفتاح ص ٢٥٤

(٢) (نعم وبئس) لا تختصا بنوع من المدح أو الذم دون نوع؛ فلابد أن يكون فاعلهما عاما (اسم جنس) مطابقة لمعناهما؛ ليدل أنه ممدوح، أو مذموم في نوع من الأنواع، ولفظ المخصوص بالمدح أو الذم إن كان علما لا يدل على التفرقة بينه وبين غيره في المدح والذم. ينظر شرح المفصل ٣٩٤/٤، وتقدير السؤال واقتضاء السياق الجواب عليه من المواضع الموجبة للاستئناف والقطع، فجُعل إبهام الجنسية (الرجل) الكائن في قولنا: نعم الرجلُ زيدٌ مقتضيا تعريف المخصوص(زيد) بما يخصصه ويحضره بعينه في ذهن السامع، تنبيها له على موقعه، وتحريكا له أن يسأل: مَنْ هو المُنعَم عليه بالمدح من ==

في جواب نعم وبئس، والاختصار في الكلام: أخذ أوساطه وترك شُعَبِه، والخصر: وسط الشيء[١]، فمبنى الكلام على اختصار جامع للمعاني مراعى فيه الاعتدال بين الإيجاز المحض والإطناب المحض، ثالثا: إيهام الجمع بين طرفي النقيض المتنافيين كالجمع بين الإجمال والتفصيل، وهذا من شأنه أن يلبس على السامع، فكيف يكون الكلام معتدلا وهو جملة واحدة- نعم الرجل زيد- اجتمع فيها (الاعتدال)الإطناب والاختصار، و(التنافي)الإجمال والتفصيل؟! احترس السكاكي لذلك بأن جعل الاعتدال معرضا للكلام، والجمع بين الإجمال والتفصيل إيهاما، بخروج الكلام في معرض غير لفظه الظاهر احتيالا للتوصل إلى المعنى، فلم يكذب أو يتزيد، بل أبان باستحضار النظائر، وجعل السامع إبان سماع أسلوب نعم وبئس في حال يشبه السامع لأسلوبين متنافيين، فيحصل له من التشويق والاستغراب واللذة وإمالة القلب، ثم نعت الأثر المنبني على سماع هذا الأسلوب بالسحر، يقول: "فمبنى السحر الكلامي الذي يقرع سمعك على أمثال ذلك لكفى"[٢] والسحر الكلامي بيان فطنة لَطُف مأخذُها ودقّت، فصرفت قلوب السامعين إليها، فالمعرض الذي برز فيه الكلام المعتدل، والموهم الجمع بين المتنافيين يقرع سمع المتلقي، فيخدع توقعه، ويصرف عقله وينبهه إلى ما لم يعهد من اللطائف، بسحر بيانه، وحميد نعته أو ذميمه، هذا مما استطاع البيان أن يصفه وعبارة السكاكي في هذا الموضع مما لا تقوم به العبارة، فلا يفي البيان بما يختلج في الصدر عنه.

==

جنس الرجال؟ فيأتي الجواب: هو زيد، مسكوتا عن المبتدأ مطابقا لمقتضى حال السامع الذي يسائل نفسه، ويتشوق إلى معرفة المخصوص.

(١) ينظر مقاييس اللغة . مادة (خ ص ر).

(٢) مفتاح العلوم ص ٢٥٤

المبحث السابع

اعتبارات السامع في بيان القصر

أولا: معنى القصر: عرف السكاكي القصر بقوله: " تخصيص الموصوف عند السامع بوصف دون ثان"[1]، فلم يأت مفاد القصر على أصل معنى الكلام ومرتبته الأولى في إفادة المخاطب خبرا لا يعرفه ولكن خوطب به المتوهم، والمنكر، والمعتقد الشركة والعكس؛ لتصحيح الاعتقاد، والنص على المقصود بالخطاب بإفراده وتعيينه وقلبه؛ ولذلك خصص السكاكي السامع بالذكر (عند السامع) معترضا بين المبتدأ وخبره، فالقصر مفاده التوكيد، والتوكيد يكون لدفع توهم أو تجوز أو نسيان أو غفلة أو تردد، وهذا مرعي فيه حال المخاطب، الذي حضر في بيان السكاكي أولا منصوصا عليه، وأتت طرق القصر المختلفة مطابقة لمقتضى حاله، فإن لم يراع فلا فائدة لأسلوب القصر.

وابتدأ السكاكي بتخصيص الموصوف؛ لأن ما يعني السامع هو أحوال الذات لا الذات نفسها؛ ولذا أقحم السامع بين الموصوف ووصفه، للوظيفة المنوطة من الكلام وهي الفائدة، والفائدة تترقى بحسب حال السامع من خلو الذهن وعدمه، فالقصر يطلب لحكم يتعلق بالسامع، والاعتبار فيه بحسب مقامه.

وقد حضر في مقام القصر شخصان عني السكاكي بأحوالهما الإدراكية من التوهم والتردد والخطأ، هما (السامع) و(المخاطب)، أيكونان شخصا واحدا أم مختلفين باعتبار اختلاف مسماهما؟ الخطاب يوجّه لحاضر يسمع ويراجع، ولا يتجاوز سامعه إلى غيره، ففي مقام مراجعة السامع وقصد

---

(١) المفتاح ص ٢٥٧

تحقيق صوابه يعبر السكاكي بـ(المخاطب)، أما (السامع) فيعبر به في مقام تلقي المسموع بالقبول وعدم مراجعته.

اعتبارات السامع في بيان الأمر

عني السكاكي بالكلام ومنشئه ومتلقيه، فنص على متكلم بليغ له فضل معرفة بصياغة الكلام وتمييزه، ولم يقصد أيَّ سامع بل نص على سامع ذي فطرة سليمة، وجعل إفادته من المعنى – ما كان جاريا مجرى اللازم له – ما يسبق إلى فهمه عند سماع تراكيب البلغاء، فجعل الاستعلاء حقيقة في الأمر لازما له معتنقا إياه مصاحبا له دائما، وهذه الحقيقة ليست هي المعنى الوضعي المعجمي لمادة الأمر في معجمات اللغة، فلم تقر على وضعها، فتكون صيغة الاستعلاء حقيقة في الأمر باعتبار صدوره عن البليغ، والخلاف في إطلاق اسم الأمر على الفعل، هل هو حقيقة أو لا؟ خلاف لفظي يضيق عنه مقام الدرس.

السماع يترتب عليه درجات في الفهم، ففهم العامة غير فهم الخاصة، والسامع المُعنى به السكاكي موجها كلامه إليه عند إطلاقه سامع بليغ يرتفع عن فهم القشور والسطوح، يسمع اللفظ فيتبادر إلى فهمه المقصد منه، والتبادر "من أقوى أمارات الحقيقة"[(١)] فمقصد السكاكي من سماع لفظة الأمر: طلب الفعل استعلاء وما سواه يتوقف على قرائن الأحوال الصارفة إلى المجاز.

اعتبار السامع في خروج الطلب لا على مقتضى الظاهر

يعبر السكاكي بـ(المخاطب) في مقام الرضا والتودد ١– لقصد التفاؤل بالوقوع، فيجابه المتلقي بما يقبل عليه وينشرح له، أما إذا كان الأمر بخلاف

(١) المطول ص ٢٤٠

ذلك فيعبر بـ(السمع)، وذكر لذلك مثالا أن هارون أهدى كاتبه بُرْدَه إذ راعى الكاتب مقام خطاب الخليفة (هارون) فأجابه داعيا قائلا:(لا وأيدك الله) قصدا للتفاؤل وكون التأييد واقعا حاصلا، وعبر بـ(السمع) مع الجهلة الذين ليس لهم دربة في البلاغة، ولا يعرفون كيفيات المخاطبة، ويجابهون المتلقي العارف بجهات حسن الكلام بما يكره "وهل خلع هارون على كاتبه....إلا لأنه لم يسمع ما عليه الأغبياء فيما بينهم من لا أيدك الله بترك الواو"(١) لانعدام الشعور الأخلاقي الضروري لتهذيب الذوق وتربيته، فالكاتب عبقري راعى انطباق كلامه على ما لأجله يُساق فوفى بغرضه مع إشباع المتلقي ذوقيا وجماليا ونفسيا.

٢- حمل المخاطب على المذكور أبلغ حمل بألطف وجه هذا أيضا من المقامات التي يحسن أن يعبر فيها بـ(المخاطب)؛ لأنه مقام حث وترغيب وتقوية لأواصر المحبة والأخوة بين الأفراد، فعبر بأفعل التفضيل (أبلغ وألطف)، وعدل عن الطلب إلى الخبر: تأتيني غدا أو لا تأتيني رقيا بالمخاطب وعلوا في الطلب، يجمع بين الجمال والجلال؛ لمخاطبته نفس المخاطب وذوقه قبل عقله، ونسيانه ما يتعلق بفرديته ودمجه مع المتكلم شعورا ووجدانا قبل أن يتحدث إليه، فالحمل على الفعل إغراء به، واستشفاع بالمتلقي على المخاطب ليلبي، واستثارة نفسه للفعل، فينصاع للطلب مظهرا الرضا متحررا من الجمود العقلي والكسل.

٣- أسلوب الحكيم: وهو نوعان:١- مباغتة المخاطب وتلقيه بغير ما يتوقع مفاجأة له، فالمقام مقام لوم وتعريض بالمتكلم ومغالطته وتسفيه رأيه، وقطعه عن الجواب بإحراجه، وصرف نظره إلى ما ينبغي أن يكون بحسن

(١) المفتاح ص ٢٨٥

تعليل وتوجيه وتجاهل عارف، وتغاب، وسلّ سخيمة؛ فلذا عبر بـ(المخاطب)، والمخاطب في هذا المقام شريك للمتكلم في إنتاج المعنى، بل يمكن القول بكونه أكثر حكمة، وأغزر بديهة، وأزكي قريحة، وأهدأ نفسا حيث وجّه سير الدلالة بألطف وجه لصالحه، وعطف دفة الكلام إلى ما يريد، وهو ناقد للمتكلم نقدا موضوعيا عن قصد ودراية مستهدفا خلق تأثير معين وإثارة عاطفة تشبه عاطفته منبهة للمتكلم على الصواب وزحزحة لقراره.

٢- تلقي السائل بعير ما يتطلب: قد ينشغل المتلقي بالمظهر الخارجي والشكل، وتعتم روحه وتجدب عن إدراك حكمة الشيء، فيتساءل، قد يكون سؤاله استخبارا، أو جدلا، أو امتحانا، أو تجاهلا، فيُعدل عن ظاهر الجواب إلى ما هو أولى، فيجيب المخاطب جوابا تعليميا تأديبيا صارفا ذهن المتلقي إلى الأصوب والأهم والأحرى بإزاحة جواب سؤاله الأصلي إلى سؤال جديد، منتقدا عقل السائل ولسانه بألطف وجه ومنبها له على خطئه، من خلال تأثره التذوقي للسؤال وعاطفته الهادئة الخاضعة لسلطان العقل التي نأت عن الانفعال الصاخب وتعنيف السائل مولدة عنده إقناعا منطقيا، وإمتاعا عاطفيا، وإثارة محفزة للاستجابة، محرضة على العمل بما يمليه الجواب، وخروجا من الوحدة الفردية بتقديم إجابة مخصوصة بعقل السائل إلى إجابة عامة تنفع الإنسانية، فيعيد بذلك صياغة ذوق السائل، وتوجيه طاقاته إلى الاختيار الواعي لما يتزاحم على ذهنه من أفكار وتساؤلات.

وأجمل السكاكي ناقدا أسلوب الحكيم بقوله:" لربما صادف المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور وأبرزه في معرض المسحور"[١]

(١) المفتاح ص ٢٨٨

ركز النص على شيئين أساسيين: أولهما: المطابقة لمقتضى الحال، والثاني: الجمال الذي لا يحتاج إلى تفسير منبعه التأثير في المتلقي، واستثارة انفعاله، وقد تجلى هذا في مظهرين حسي مدرك، ومعنوي غير مدرك، ومثل السكاكي لقوله هذا بواقعة الحجاج مع الخارجي، فقد استطاع الخارجي أن يثير اهتمام الحجاج ويوقظ مشاعره بذكاء قريحته، وحسن تصرفه في القول ففجأه، وباغت توقعه، وجذب انتباهه نحو الكلمات، وصرفه عن الجو الخارجي المحيط بالموقف، فجعله يراجع كلماته، ويخصصها بوصف كاشف.

فالسامع حيال أسلوب الحكيم في حال مقابل لحال المتكلم، المتكلم هادئ حركيا منفعل نفسيا وفكريا، تتحرك مشاعره وأفكاره حركة داخلية لا تبرز على السطح، فيبدو متزنا ثابتا، أما المتلقي فيستخفه القول، فيخرجه من حال السكينة والحلم والوقار والرزانة إلى الخفة أو الطيش فيعبر عن انفعالاته واستجاباته ذهنيا وقوليا وحركيا، فيكثر من الكلام متعجبا دَهِشا[1] يظهر ذلك في تعبيرات جسده، فقد يضطره الانفعال إلى الإشارة أوالتلويح باليد، وتغيير تعبيرات الوجه، ورفع الصوت، وتحريك المنكبين، وتحريك الرأس، وهز الجسد طربا، وهذا إذا كان لكلام الحكيم تأثير سار، أو على النقيض فقد يسكت مبهوتا متحيرا، يصاحب سكوته فهما وتأملا ودهشة وأخذة واهتمام وقوة تركيز ومخالفة توقع.

(١) كما يفعل سامعو القرآن الكريم من التسبيح والتهليل والتكبير مما يخرجهم عن وقارهم، ويفسد جو الروحانيات والسكينة والخشوع المصاحب للتلاوة.

الفصل الثاني

اعتبارات السامع في علم البيان

مهاد: أدرك السكاكي دور السامع (مستقبل القول) المهم في عملية التوصيل، فالكلام صلة بين طرفين: متكلم منشئ للقول، وسامع مستقبل يستقر القول عنده ويطمئن فيه، وقد استطاع الإنسان من خلال أصوات اللغة المنطوقة أن يتواصل بين بني جنسه للتعبير عن أغراضه، وسد احتياجاته، وتكوين علائق التعارف بينه وبين الآخرين، فيتحقق لهم وجود اجتماعي، وهذا لا يتحقق إلا بوجود جامع يوحد بين مشاربهم ومنازعهم المتباينة، وهو اللغة في مستواها الأول، ومعناها الوضعي التي يستوي الجميع في إدراك دلالاته العرفية الوضعية، ومن هنا تكون للغة وظيفة اجتماعية وهي تحقيق التواصل الفعال بين بني البشر، وتنتفي المفاضلة والتفاوت بين الدلالات على المعاني في هذا المستوى الأول الذي عده السكاكي أصل المعنى، وأخرجه من دائرة الدرس البلاغي؛ لاستواء الجميع في التعبير عن مآربهم وحاجاتهم، إذن هناك معنى عرفي وضعي يتعارفه الجميع ويتواصلون به، وتنتفي العملية التواصلية إذا كان السامع غير عالم بالدلالات الوضعية للمفهومات التي تدل عليها، وعلي هذا الأساس بنى السكاكي رؤيته في أن الدلالة الوضعية لا يمكن أن ندرك منها فنية القول بناء على أن علم البيان: هو إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه والنقصان[١]، وعليه فإنه لو وضع بإزاء معنى معين ما يرادفه بالدلالات الوضعية كان حال السامع إزاء الأسلوبين واحدا إذا كان عالما بالدلالات الوضعية لهذا المعنى، فلا يتصور إيراد المعنى بالزيادة في الوضوح والنقصان، وإن لم يكن عالما لم يفهم منها شيئا، وهذا هو الفرق بين الحداثة والتراث، فالحداثة تضع المعنى على حسب هوى الشاعر،

(١) المفتاح ص٢٨٩

فالمصطلحات والدلالات قابلة للتمدد بلا مشابهة أو قرينة، أما التراث فليس من حق الشاعر أن يضع الدلالة وفق هواه بل لابد من وجود قرينة أو مشابهة.

وعبر بـ(السامع) في حديثه عن الدلالات الوضعية؛ لكونها العرف اللغوي المتعارف الذي يتواصل به أبناء اللغة الواحدة، وهي المعاني الأصلية التي لا يعتبرها في بلاغة الكلام بل هي بلاغة اللسان الذي يستطيع أن يعبر عن حاجته ويتواصل مع غيره، فلم يعتبر فيها قوى السامع الفكرية من ذكاء وبلادة، وشك وإنكار بخلاف حديثه عن الدلالات العقلية غاير فعبر بـ(المخاطب)، وبين السامع والمخاطب عموم وخصوص، فالسامع في هذا المقام عام لاختصاصه بعلم الدلالة الوضعية التي يستوي في إدراكها الجميع؛ لكونها أصل المعنى، وفي إدراك الدلالة العقلية (التضمن والالتزام) لم يعتبر إثبات المخاطب للمعنى عن طريق العقل بل يكفي اعتقاده؛ "لأن الموصوف بالوضع اللفظ لا المعنى"[1] والدلالة العقلية خارجة عن تمام ماوضع له اللفظ، وهنا يفسح المجال لإبداع الشعراء والأدباء لتوليد المعاني المخيلة المبتكرة مع عدم وصف المخاطب إياهم بالكذب لوجود القرينة العقلية التي تصرف الكلام إلى التجوز والتخييل على جهة الاحتمال والإمكان "بحسب موقعه من اعتقاد ما"[2]، وحذق الشاعر واقتداره على المحاكاة والتخييل والتمويه يرجع إلى قدرة الشاعر على توليد المعاني وابتكارها وانتقاء موادها لا إلى الدلالة الوضعية للكلام.

---

(١) حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص ٢٦٤/٣، دار الإرشاد الإسلامي بيروت. د.ت.

(٢) منهاج البلغاء وسراج الأدباء. حازم القرطاجني، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، ص١٣، ط٣، دار الغرب الإسلامي. بيروت١٩٨٦م.

المبحث الأول

التشبيه

الغرض العائد إلى المشبه:

١- تقوية شأنه في نفس السامع وزيادة تقرير له عنده: يتوخى السكاكي أن يكون المعنى الممثل به (المشبه به) في نفس السامع بيّنا مُمَكَّنا[(١)]، فلا يُطمح إلى جحده أو إبطاله، فيصبه في سمع السامع صبا، ويكرره ويردده حتى يظفره بالمعنى فيفهمه ويعرفه، فيقر ويسكن ويطمئن، وقد بين السكاكي درجة المخاطب بهذا المستوى التقريري من الكلام، فالمخاطب صاحب، ومقام الصحبة يقتضي البسطة وعدم التكلف، كما يقتضي الحرص على المصلحة، وحفظ مواثيق الصحبة وحقوقها، فدراسة الأسلوب هنا دراسة نفسية اجتماعية كما هي دراسة لغوية، فرضت على المتكلم طريقة معينة في التعبير؛ ولذلك أطنب ونقش عين المعنى في الجملة مُمَثَّلا بصورة حركية مرئية، ثم أفصح عنه بيانا، فتمثل مراده بمستويين من الدلالة: الأول: غير لفظي وهودلالة الخط (الرقم)، والثاني: لفظي، والمستوى المرئي فاعليته في القدرة على توجيه فكر السامع وإثارة انفعاله، وتعديل دوافعه ليحدث تأثيرا واستجابة، فهما ثم إقناعا يتبعهما تغييرا في سلوكه، فالصورة المرئية التي نقشها المتكلم معرضا للمشاهدة ومنبهة للانفعال، ومحدثة للأثر المطلوب، والصورة اللفظية منبه آخر عضد الأثر الناتج عن الصورة المرئية ولكنها على درجة من القوة باعتبارها " قوة ضاغطة يسلطها المتكلم على

(١) " ...كما إذا كنت مع صاحبك في تقرير أنه لا يحصل من سعيه على طائل، ثم أخذت ترقم على الماء وقلت هل أفاد رقمي على الماء نقشا ما؟ أنك في سعيك هذا كرقمي على الماء فإنك تجد لتمثيلك هذا من التقرير ما لا يخفى". المفتاح ص ٢٩٨

المخاطب؛ بحيث يسلبه حرية التصرف إزاء هذه القوة، فكأن الأسلوب أصبح بمثابة قائد لفظي للمتلقي."[١]

واشترط السكاكي لحدوث زيادة تقرير المشبه عند السامع أن يكون المشبه به "أعرف بجهة التشبيه من المشبه، وأخص بها، وأقوى حالا معها"[٢] أي كمال المشبه به في وجه الشبه عن المشبه وتمامه وشهرته وشدة معرفته عند السامع؛ ليقبل التشبيه، وتحدث بمقتضى قبوله استجابة موجبة عن اقتناع؛ لأن الغرض من التشبيه غالبا يعود إلى المشبه؛ لأنه محكوم عليه ومقيس، والمشبه به إن لم يكن معروفا متقررا عند السامع لم يوف بغرضه، فيكون مردودا، وعلل ذلك بعلة نفسية لامتناع "تقرير الشيء بما يساويه التقرير الأبلغ"[٣] في نفس السامع مراعاة لحاله، فالمراد تمكين المعنى في نفسه وتقريره فيها وطمأنته إليه حتى لا يمكنه مدافعته بتوهم ضده، فالمشبه به الحسي المشاهد إذا كان أتم من المشبه في وجه الشبه الحسي كان أمكن في النفس من غيره لـ"عدم إمكان دفاعه بالوهم والتساهل والغفلة"[٤].

٢- إبرازه إلى السامع في معرض التزيين أو التشويه أو الاستطراف وما شاكل ذلك: والإبراز ظهور بعد خفاء؛ ولذلك اشترط السكاكي كون المشبه به المعقود به القياس والمقارنة مُسلَّم الحكم، أعرف في وجه الشبه من

---

(١) البلاغة والأسلوبية. د. محمد عبد المطلب، ص٢٣٥، ط١، الشركة المصرية العالمية لنشر لونجمان ١٩٩٤م.

) المفتاح ص (٣٠١2

(١) المفتاح ص ٣٠١

(2) مواهب الفتاح ضمن شروح التلخيص ٤٠١/٣

المشبه[١] لا كونه أقوى في وجه الشبه ولا أخص كما في التقرير؛ ليتحقق الإبراز والظهور، وامتناع "تعريف المجهول بالمجهول"[٢] وذلك إذا أريد استثارة انفعال السامع بالميل إلى الشيء أو النفرة عنه، وجذب انتباهه إلى مكونات الصورة التي رسمها المتكلم، وتنظيم أجزائها، وتناسق مكوناتها وتناسبها؛ ليدرك أيكون القبح والجمال موجودين وجودا فعليا في الأشياء الممثل بها، أم وجودا متخيلا في عقل المتكلم؟ فالقصود تخييل وإيقاع تزيين المشبه أو تشويهه في ذهن السامع وعينه، فالصورة الممثلة حسية يرسمها المتكلم بكلماته؛ لتنتقش في مخيلة السامع ونفسه، والغرض هو قبول السامع لها فيرغب فيها ويميل إليها وينبسط لها، أو تنفيره عنها فينقبض منها ويتجافى عنها، وهو ما يتحقق بحسية أحد الطرفين أو كليهما معا؛ لعلة نفسية يراعى فيها طبيعة النفس البشرية ومستويات إدراكها "فقبول النفس لما تعرف فوق قبولها لما لا تعرف"[٣].

وهذا من شأنه أن يحول السامع إلى ناقد يبحث عن العناصر التي حددت استجابته نحو الشيء بالتحسين أو التقبيح، بكل ما تشتمل عليه الاستجابة من عناصر حسية وإدراكية وانفعالية ومعرفية واجتماعية، وقد مثل السكاكي للاستطراف بأمثلة من الكائنات الحية (الأزهار والحيوانات) قصدا إلى تزيينها وميل الاستجابة إليها بالتلميح والاستلطاف والاستلذاذ والاستطراف والجدة على عكس ما فعل مع النموذج البشري فأبرزه في معرض التزيين أو التشويه، وهو يقصد بذلك إلى بسط النفوس أو قبضها

(3) المفتاح ص ٣٠٨

(٢) السابق ص ٣٠١

(٣) السابق ص ٣٠٨

لحاجة في نفس قائله، وأكثر ما يرد هذان الغرضان في شعري المديح والهجاء مما له علقة بنفس القائل وتقلبات مزاجه إن رَضِي زيّن، وإن سخط شوّه، وإن تأمل وتفكر استطرف، وقد يخيِّل فيحسِّن القبيح ويزينه؛ ليقنع السامع برؤيته فيقرنها بمثل شاهد ودليل موجود لا مفروض، ويعطفه نحو إبداعه، فيحاكى المحسوس بالمحسوس" كما إذا شبهت وجها أسود بمقلة الظبي إفراغا له في قالب الحسن ابتغاء تزيينه"[١] قصدا إلى الإغراب بقصد إيهام وتمثيل وتعديل ما تنفر عنه النفس عادة لا حقيقة إلى ما تميل إليه "ومن التذاذ النفوس بالتخيل أن الصور القبيحة المستبشعة عندما قد تكون صورها المنقوشة والمخطوطة والمنحوتة لذيذة إذا بلغت الغاية القصوى من الشبه بما هي أمثلة له، فيكون موقعها من النفوس مستلذا لا لأنها حسنة في أنفسها بل لأنها حسنة المحاكاة لما حوكي بها عند مقايستها به"[٢] فقد اختار السكاكي للسواد ما يحسن وقعه في النفوس وهو سواد مقلة الظبي محققا بذلك ارتقاء ثقافيا واجتماعيا وأخلاقيا بالإنسان، ماحيا الفواصل والطبقات بتفضيل الإنسان على أساس عرقه ولونه، محفزا ملكاته على الخلق والإبداع.

(١) المفتاح ص ٢٩٨

(٢) منهاج البلغاء ص١١٦

المبحث الثاني

الاستعارة

الاستعارة: تقع على المعاني أولا، فهي استعمال اللفظ في غير معناه الأصلي لعلاقة المشابهة والمناسبة في الوصف بين ما انتقل منه إلى ما انتقل إليه، ومبناها على دعوى إدخال المشبه في جنس المشبه به، وهذا ما نبه عليه السكاكي " والذي قرع سمعك من أن الاستعارة تعتمد إدخال المستعار له في جنس المستعار منه هو السر في امتناع دخول الاستعارة في الأعلام، اللهم إلا إذا تضمنت نوع وصفية"[١] فالأعلام لا تفيد معنى ولا جنسية ولا تختص بوصفية، بل تدل على مسماها فقط، ولا علاقة بين معنى العَلَم وما يدل عليه ويصفه، فقد يسمى الشخص جمالا وهو غير جميل، فالتسمية لا تعني الوصف، وتنبيه السكاكي في هذا الموضع دون غيره من مواضع الاستعارة له علاقة بتحديد المعنى ووضوحه دون التعمية والإلباس على القارئ (السامع)، فلو كان إطلاق العلم على الأشخاص استعارة أدى إلى التشريك بين الأعلام وبين الأوصاف في المعاني، وصار إذا نودي شخص بهذا العلم المشترك احتاج المتكلم إلى قرينة تميز كلامه، وهو ما يقتضي عنت المتكلم، وتعسف الفهم على المخاطب، كما أنه يعوق التواصل بين طرفي عملية التوصيل مما يضيع الغرض الأصلي من التواصل وهو الفهم والإفهام، وإيصال المعنى إلى قلب السامع واضحا محددا دون لبس أو إلغاز أو تعمية، فالأعلام لا تختص بلازم مشهور له نوع اختصاص بالمشبه به[٢] حتى يمكن استعارته منها كما في الأعلام التي لها نوع وصفية كحاتم وسحبان.

---

(١) المفتاح ص ٣٢٠

(٢) ينظر التلويح على التوضيح. سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، ١٥٩/١، مكتبة صبيح. د. ت

خاتمة

الحمد لله أولا وآخرا، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده سيدنا محمد الصادق الصدوق الذي أخرج الناس من ظلمات الجهل إلى نور العلم...

وبعد

فقد حطت رحال البحث أوزارها بعد تطواف وتجوال في القسم الثالث من مفتاح علوم السكاكي للبحث في بلاغة السامع التي خصها السكاكي في أغراضه البلاغية للأساليب بالذكر، وبادئ ذي بدء يمكن القول إن بيان السكاكي في القسم الثالث يتميز بإيجاز القصر المسمى بإيجاز البلاغة، فلا يمكن للقارئ فهم مراده ألا أن يكون مطلعا على تآليف شتى، متضلعا بعلم النحو وأصول الفقه وأنواع شتى من فنون الأدب، كي يمكن فهم مراده، وهذا هو باعث الشراح والمحشيين والمقررين لشرح تلخيص المفتاح.

السامع هو المتتبع لخواص التراكيب في الإفادة، فتكرر ذكره، وذكر أثر الكلام عليه عند سماع التراكيب، وذكر درجة الإفادة التي يحصّلها من سماع كلام جديد أو مُعاد، وعُدّ طرفا منتجا للدلالة فيعتبر حاله من خلو الذهن، أو تحيره وشكه، أو استفهامه، أو إنكاره، أو قصد تجهيله، أو التعريض بغباوته، أو جعله حكما فيصلا، أو اختبار ذهنه، وتيقظ خاطره...إلى غير ذلك من الأغراض والأحوال التي أشرك فيها "السكاكي" السامع في خطابه وجعله عنصرا فاعلا في توجيه القول، واقتداح زناد عقل المنشيء له.

من الفرائد التي تفرد بها السكاكي ولم ترد عند غيره من شارحي التلخليص هو النص على أحوال المتكلم البليغ من معرفة بصياغة الكلام، وفضل تمييز بين البليغ وغيره، وفصل بعضه من بعض، وتفرده عن غيره،

والتفرقة بينه وبين غيره، كما نص على كون السامع ذي فطرة سليمة يفهم تراكيب البلغاء، وهذا يلزم منه أن يكون بليغا مثله على نفس القدر أو أكبر في التذوق والتتبع.

ربط "السكاكي" بين وظيفة كل جزء من أجزاء الجملة نحويا وبين المناسبة التي تلائمها؛ ليطبق ذلك على ما يقتضي الحال ذكره، فيذكر في مطلع كل مبحث بلاغي الوظيفة النحوية للمبحث، يبدأ من حيث انتهى النحو، فقسم مباحث علم المعاني تقسيما نحويا، مثل: تفصيل اعتبارات المسند إليه والمسند، فذكر مباحثهما على ترتيب أبواب النحو في التعريف والتنكير، والإطلاق، والتخصيص، والتقديم والتأخير، وبدأ كل مبحث بذكر الوظيفة النحوية له أولا، وهو أصل المعنى فيه، ثم يترقى إلى ذكر النكات البلاغية.

تدرج "السكاكي" في كتابه فارتقى من علم النحو إلى علم المعاني والبيان، وفي كل مبحث من مباحث علم المعاني يستهل بالفائدة منه مبتدئا بالغرض الأساس التي جاء التعريف له في مباحث "تعريف المسند إليه"، وهذا الغرض يتصل في أساسه بالوظيفة المعنوية لموقع المبحث في النحو ذاكرا فيه السامع ذكرا وجوبيا، وهذا يستنبط منه أن الإفادة التي هي الغرض من الكلام لا تتحقق إلا بإفهام المتكلم السامع، وحصول الفهم والتمييز للسامع، ثم يذكر الغرض والمقصد الذي يتوخاه البلاغي مع الغرض الأصلي.

في مبحث تقديم المسند إليه على المسند للتشويق والتعجيل بالمسرة هاتان الحالتان هما التي جعل السكاكي فيها الغرض والمأمّ نفسيا، وقاس الأولى منهما على إيراد المسند إليه اسما موصولا، وهذا فيما يخص السامع، أما سائر الأغراض التي تخص السامع فكان المأم فيها ذهنيا قصدا إلى التعريف والتمييز والإحضار.

من الموائز التي ميزت أسلوب السكاكي عنايته بالسامع ومنعه من سوء إفهام المتكلم، وتشويقه، وتنبيهه عن الغفلة والسهو والنسيان، وتجديد فتور نشاطه، وتحريك همته وبعثها إن عرض له ما يمنع التلقي كالمَلال والسآمة والضيق والضجر أو الانشغال والتلهي، والاحتياط له عن الخطأ والتوهم، أو التردد أو الشك والريب أو الإنكار والتكذيب، أو التهكم والاعتراض؛ ولما كانت خواص تراكيب الكلام وأحوال تطبيقها على ما يقتضي الحال ذكره ليس لها أوضاع تجري مجرى القوانين والقواعد، وتعلم علم اليقين غير الموهوم، ألح السكاكي على زيادة تقرير المعنى وتمكينه في ذهن السامع، وقراره في نفسه، وطمأنته في قلبه في عدة مباحث في من القسم الثالث من مفتاحه كتقديم المسند إليه على المسند، أو تعريفه بالإشارة الحسية، أو بالعلمية، أو بوضع المضمر موضع المظهر، أو إيراد المسند جملة، أو تقوية شأن المشبه في نفس السامع وزيادة تقريره.

قد يعبر السكاكي بـ(المخاطب) وقد يعبر بـ(السامع)، ففي مقام تقديم المسند إليه والمسند تبين أن التعبير بـ(المخاطب) يكون في المقامات التي يقصد فيها تحقيق الصواب ونفي الخطأ إذا كان المخاطب يحكم حكما مشوبا بصواب وخطأ، فينص على المخاطب لكونه مقصودا بالخطاب حاضرا، والمتكلم يراجعه، ويصحح معتقده، وقد ورد هذا في باب قصر القلب والإفراد والتعيين، وتقييد الفعل بالشرط، والعبرة هي تصحيح الخطأ أو الرد الصواب، وهما مقامان تتعين فيهما المخاطبة والمراجعة؛ لحضور طرفي الخطاب، وفي باب القصر عبر السكاكي بالمخاطب والسامع، وقد حضر في مقام القصر شخصان عني السكاكي بأحوالهما الإدراكية من التوهم والتردد والخطأ، هما (السامع) و(المخاطب)، أيكونان شخصا واحدا أم مختلفين باعتبار اختلاف مسماهما؟

الخطاب يوجّه لحاضر يسمع ويراجع، ولا يتجاوز سامعه إلى غيره، ففي مقام مراجعة السامع وقصد تحقيق صوابه أو دفع إنكاره ورد خطئه يعبر السكاكي بـ(المخاطب)، أما السامع فيعبر به في مقام تلقي المسموع بالقبول وعدم المراجعة، كما يعبر بـ(المخاطب) في مقام الرضا والتودد؛ لقصد التفاؤل بالوقوع، فيجابه المتلقي بما يقبل عليه وينشرح له، أما إذا كان الأمر بخلاف ذلك فيعبر بـ(السامع).

عبر السكاكي بـ(السامع) في تمهيده لعلم البيان وحديثه عن الدلالات الوضعية؛ لكونها العرف اللغوي المتعارف، وكون السامع غير معين، بل هو كل من يتأتى منه معرفة الوضع اللغوي للكلمات، فهي عامة مطلقة، فلم يعتبر فيها قوى السامع الفكرية من ذكاء وبلادة، وشك وإنكار، بخلاف حديثه عن الدلالات العقلية غاير فقال: (المخاطب)؛ لأن المخاطب بها مخصوص بكونه بليغا؛ لقدرته على فهم المعاني الخارجة والمحتملة للفظ على جهة التجوز والتخييل دون وصمة أصحابها بالكذب لوجود القرينة.

كانت بعض الفصول أطول من بعضها بناء على ما ورد من مباحث في كلام السكاكي، فقد أحصى البحث ذكر السامع أربعين مرة في علم المعاني ومرتين في علم البيان؛ وذلك لأن دراسة خواص تراكيب الكلام وأحواله هي أساس الكلام وعموده الأصلى وعلم البيان ينطلق من علم المعاني إلى ما هو أزيد، فما سبق دراسته لا يكرر بل يعتبر في درس البيان.

والله الموفق وهو هادي السبيل

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

ثبت المراجع والمصادر

- أسرار البلاغة. عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، تح: محمود محمد شاكر، ط١، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة ١٤١٢هـ . ١٩٩١م.
- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية. د. مجيد عبد الحي ناجي، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ١٤٠٤هـ . ١٩٨٤م.
- البلاغة والأسلوبية. د. محمد عبد المطلب، ط١، الشركة المصرية العالمية لنشر لونجمان ١٩٩٤م.
- التفضيل الجمالي دراسة في سيكولوجية التذوق الفني. د.شاكر عبد الحميد، عالم المعرفة، العدد٢٦٧، ذو الحجة ١٤٢١هـ – مارس٢٠٠١م .
- التلويح على التوضيح. سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني، مكتبة صبيح. د. ت
- حاشية الدسوقي ضمن شروح التلخيص، دار الإرشاد الإسلامي بيروت. د.ت.
- حاشية الصبان على شرح الأشمونى لألفية ابن مالك. محمد بن علي الصبان الشافعي، ط١، دار الكتب العلمية بيروت–لبنان١٤١٧ هـ – ١٩٩٧م.
- ديوان عبدة بن الطبيب. دار التربية، بغداد١٩٧١م.
- رسائل الجاحظ. عمرو بن بحر الجاحظ، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤م.
- شرح المفصل. الزمخشري، تقديم: د.إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، ط١، ١٤٢٢هـ . ٢٠٠١م.
- شروح التلخيص، دار الإرشاد الإسلامي بيروت. د.ت.

– صحيح مسلم. أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، تح: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة : ١٣٧٤ هـ – ١٩٥٥ م.

– العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبي علي الحسن بن رشيق، تح: محمد محيي الدين، دار الجيل.د.ت.

– الفصول في الأصول. أبي بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص، ط٢، وزارة الأوقاف الكويتية١٤١٤هـ – ١٩٩٤م.

– كتاب الصناعتين الكتابة والشعر. أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري، تح: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م .

– لسان العرب. ابن منظور. تح: عبدالله الكبير، ومحمد أحمد حسب، دار المعارف.د.ت.

– مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر.أ.أ.رتشاردز، ترجمة محمد مصطفى بدوي، ط١، العدد٤١٦، المجلس الأعلى للثقافة٢٠٠٥م.

– المطول. سعد الدين التفتازاني، المكتبة الأزهرية للتراث.د.ت.

– مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل. أبي الحسن علي بن أحمد بن حسن الحرالي، تح: محمادي بن عبد السلام الخياطي، ط١، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي. الرباط ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧ م.

– مفتاح العلوم. أبي يعقوب يوسف بن أبي بكر بن محمد السكاكي. تح: حمدي محمدي قابيل، راجعه: مجدي فتحي السيد، المكتبة التوفيقية .د.ت.

– مقاييس اللغة. أبي الحسين أحمد بن فارس القزويني الرازي، تح: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م.

- المقتضب.أبي العباس محمد بن يزيد المبرد، تح: محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب.بيروت. د. ت.
- مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث. د. إبراهيم الخولي، ط١، دار البصائر ١٤٢٨هـ. ٢٠٠٧م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدباء. حازم القرطاجني، تح: محمد الحبيب ابن الخوجة، ط٣، دار الغرب الإسلامي. بيروت١٩٨٦م.
- نظريات معاصرة. د. جابر عصفور، مكتبة الأسرة ١٩٩٨م.

فهرس الموضوعات

الموضوع
ملخص البحث
Abstract
مقدمة
تمهيد
الفصل الأول: علم المعاني
المبحث الأول: توجيه السامع خطاب المتكلم في الإسناد الخبري
المبحث الثاني: السامع في اعتبارات تفصيل المسند إليه:
١- طي ذكر المسند إليه
٢- إثبات المسند إليه
٣- المسند إليه معرفة
٤- المسند إليه علما
٥- المسند إليه اسما موصولا واسم إشارة
٦- تعريف المسند إليه بالإضافة
٧- المسند إليه معرفة موصوفة
٨- تأكيد المسند إليه
٩- عطف المسند إليه
١٠- تنكير المسند إليه
١١- تقديم المسند إليه على المسند
١٢- وضع المظهر موضع المضمر وعكسه
١٣- الالتفات

المبحث الثالث: السامع في تفصيل اعتبارات المسند:
١- ترك المسند
٢- ذكر المسند
٣- المسند اسما معرفة
٤- المسند جملة
المبحث الرابع: السامع في اعتبارات الفعل وما يتعلق به:
١- ترك الفعل
٢- ترك مفعول الفعل
٣- التقديم والتأخير مع الفعل
٤- تقييد الفعل
المبحث الخامس اعتبار السامع في القطع
المبحث السادس: اعتبار السامع في الإيجاز والإطناب
المبحث السابع: اعتبار السامع في بيان القصر والأمر
المبحث الثامن: اعتبار السامع في خروج الطلب لا على خلاف مقتضى الظاهر
الفصل الثاني: علم البيان
المبحث الأول: التشبيه
المبحث الثاني: الاستعارة
الخاتمة
ثبت المصادر والمراجع
فهرس الموضوعات